

سُورَةُ ص

حين تصطدمُ عِزَّةُ الوحي بِكِبَرِ الإنسان



رحلةٌ في خصومة المكذّبين، وإنابة الأنبياء، وفتنة السلطان،
وشفاء الصابرين، وسرّ السجدة التي أبى عنها إيليس

تأليف: رَدَّاد السَّلَامِي



سُورَةُ ص

حين تصطدمُ عِزَّةُ الوحي بِكِبَرِ الإنسان

رحلةٌ في خصومة المَكذِّبين، وإنابة الأنبياء، وفتنة السلطان، وشفاء الصابرين، وسرّ السجدة
التي أبى عنها إبليس

تأليف: رَدَّاد السَّلاَمِيُّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل الرحلة: سورة توقظ موضع السجود في الإنسان

ليست سورة ص مجموعة قصص متجاورة، بل هي محكمة ربانية يُستدعى إليها القلب ليجيب عن سؤال واحد: لمن تكون العزة؟

أتكون لمن يملك الجاه والمال والأتباع، فيستكبر عن الحق لأنه جاء على غير الصورة التي أرادها؟ أم تكون لمن ينكسر لله، ويرجع إليه، ويسجد عند موضع الفتنة، ويعلم أن الملك كله عارية في يده، وأن القوة مهما عظمت لا تنجو بصاحبها إلا إذا قادتته إلى العبودية؟ تبدأ السورة بحرف واحد: (ص)، كأنها طريقة مهيبية على باب القلب؛ وتنتهي بمشهدين متقابلين: آدم الذي تلقى نفخة التكريم، وإبليس الذي ردّه الكبر إلى اللعنة. وبين البداية والنهاية يمر بنا موكب من الأوَّابين: داود، وسليمان، وأيوب، وإبراهيم، وإسماعيل، ويعقوب، وإسماعيل، واليسع، وذو الكفل عليهم السلام.

كل واحد منهم يعلننا صورة من صور الرجوع إلى الله:

داود يرجع من هيبه الملك إلى خشوع السجدة.

وسليمان يرجع من فتنة القوة إلى فقر الدعاء.

وأيوب يرجع من وجع الجسد إلى أدب المناجاة.

وإبراهيم وذريته يرجعون من شواغل الأرض إلى صفاء ذكر الدار.

وآدم يسجد تكريماً بأمر الله، بينما يهلك إبليس لأنه رأى نفسه أكبر من أن يخني.

إنها سورة تفرق بين العزة والاستكبار: العزة أن تكون بالله، والاستكبار أن تستغني بنفسك عنه. العزة ترفع صاحبها إلى مقام العبودية، والاستكبار يهوي بصاحبه ولو كان قد عبد الله زمناً طويلاً.

وفي قلب السورة يتكرر وصف هو مفتاحها الروحي: (أَوَّابٌ). فليست البطولة إلا تزلّ

القدم قط، وإنما أن تعرف الطريق إلى الله كلها زلت؛ وأن يكون رجوعك أسرع من شروذك، وإنابتك أعمق من غفلتك، وسجودك أقوى من نزعة نفسك.

العزة التي تمنع القلب من سماع الذكر

الآيات (3-1)

(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿٣﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿١﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحِثْ مَنَاصٍ)

تفتتح السورة بالحرف المقطع: (ص)، صوت مفرد، مقتضب، قوي الوقع، كأنه يقطع ضوضاء الاعتراض ليقم الصمت أمام القرآن. إن هذا الكتاب الذي أعجزهم مرَّكب من الحروف التي ينطقون بها؛ غير أن الحروف في أفواههم كلام بشري، وفي التنزيل بناء لا تبلغه طاقة البشر.

ثم يأتي القسم:

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ).

لم يقل: والقرآن المذكور، بل قال: (ذِي الذِّكْرِ)؛ كأن الذكر صفة ملازمة له، وفيض ينبعث منه. فهو يذكر الإنسان بما نسيه من ربه، وبما غفل عنه من مبدئه ومصيره، وهو أيضاً ذو الشرف والرفعة؛ لأن الكلام يشرف بشرف قائله، وأي كلام أشرف من كلام الله؟

وما أكثف هذه العبارة: (ذِي الذِّكْرِ)؛ ففيها ذكر الله، وذكر الآخرة، وذكر حقيقة الإنسان، وذكر سنن التاريخ، وذكر الميثاق الغائر في الفطرة. إن القرآن لا يأتيك بمعلومة غريبة عن كيانك، بل يزعج عن روحك غبار النسيان؛ فتشعر أحياناً أنك لا تتعلم منه شيئاً جديداً بقدر ما تسترد به حقيقة قديمة كانت روحك تعرفها ثم غطتها الدنيا.

لكن جواب القسم لا يذكر صراحةً، ويأتي الإضراب مباشرة:

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ).

كأن عظمة القرآن أوضح من أن تحتاج إلى جواب، وكأن المشكلة لم تكن قط في الدليل، بل في النفس التي تستقبل الدليل.

إنهم (في عِزَّةٍ)، ولم يقل: عندهم عزة. وحرف (في) يصوِّرهم محاطين بها، غارقين في وهمها، كأنها سجنٌ مغلق لا صفةٌ عابرة. إنها ليست العزة المحمودة التي تستمدُّ قوتها من الله، بل عزة الأنفة المتورمة؛ تلك التي تجعل الإنسان يرفض الحق لا لأنه لم يفهمه، بل لأنه يفهم ما يقتضيه منه: أن ينزل عن عرش نفسه، وأن يعترف بجهله، وأن يساوي بينه وبين من كان يزدريهم أمام رب العالمين.

ثم قرن العزة بـ (شِقَاقٍ). والشقاق من الشقِّ؛ كأن المكذِّب جعل نفسه في شقٍّ، والحق في شقٍّ آخر. إنه لا يكفي بأن يبتعد، بل يتخذ موقع المواجهة. وحين تنتسخم الأنا، لا يعود الحق عندها هدايةً تُتَّبَع، بل خصماً ينبغي إسقاطه؛ لأن الاعتراف به يبدو لها هزيمة. وهنا تكشف السورة أصلاً من أصول الضلال: قد لا يحجب الإنسان عن الحقيقة نقص البراهين، بل امتلاؤه بنفسه. وقد يرى النور واضحاً، لكنه يكره أن يعترف بأن النور جاء من نافذة لم يختترها.

ثم تفتح الآية الثالثة مقبرة التاريخ:

(كَرَّ أَهْلُكَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ).

كم من قوة سبقتهم! كم من جيل ظن أن صوته أعلى من صوت الوحي، وأن حصونه أرسخ من سنن الله، وأن الزمن سيحفظ له عرشه! ثم مرَّ عليه القضاء، فإذا الصخب صمت، وإذا العروش تراب، وإذا الذين ملؤوا الأرض كبرياء لا يملكون لأنفسهم أثراً. (فَنَادَوْا).

ما أوجع هذا الفعل! لم يقولوا، بل نادوا؛ فالنداء صوت البعيد والمستغيث والمفزع. طالما ناداهم الوحي فلم يجيبوا، فلما جاء العذاب نادوا هم، ولكن أبواب الإجابة كانت قد أغلقت.

(وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ).

عبارة قصيرة كأنها بابٌ يُصَفَّقُ في وجه الفرار. ليس الوقت وقت نجاة، ولا أوان مهرب، ولا ساعة رجوع. لقد انتهى زمن الاختيار، وابتدأ زمن الجزاء. وهكذا تقيم السورة أمامنا مفارقةً مفزعة: حين كان النداء الإلهي مفتوحاً، أغلقوا قلوبهم؛ وحين فتحوا أفواههم بالاستغاثة، كان الزمن قد أغلق أبوابه.

إن أخطر ما يملكه الإنسان ليس ماله ولا جاهه، بل الفرصة. وما دام القلب قادراً على الإنابة، فباب المناص مفتوح. أما إذا صارت الحقيقة مشاهدةً بعد انقضاء الامتحان، فلن ينفع الإنسان أن يوقن بما كان مأموراً أن يؤمن به.

حين يستكثر المتكبر أن يختار الله رسولا من البشر

الآيات (4-7)

(وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۖ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۚ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۚ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ) (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ).

موضع العجب عندهم ليس ضعف الحجة، بل بشرية الرسول. جاءهم رجل يعرفون نسبه وصدقه وأمانته، وكان ينبغي أن يكون كونه (منهم) سبباً للفهم والطمأنينة؛ لكنه صار في نفوسهم سبباً للاعتراض.

إن القلب المتكبر لا يريد هدايةً قريبةً منه؛ لأنه إذا جاءه الرسول من بيئته، بلسانه، وعرف تاريخه وصفاء سيرته، سقطت عنه أعدار المسافة والغموض. يصبح الحق قريباً إلى حدٍ يطالبه بالتغيير، ولذلك يحاول أن يحول قرب الحجة إلى شبهة.

وقالوا:

(هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ).

يجمعون بين وصفين متناقضين في باطنهما: فإن كان كذاباً، فمن أين لهذا الكلام سلطانه الذي يخلب القلوب؟ وإن كان سحراً ذا أثرٍ قاهر، فكيف يكون مجرد كذبٍ هش؟ لكنها الخسومة حين تفقد الدليل تجمع الكلمات لا لتصف الحقيقة، بل لتصنع حولها دخاناً. وحين يعجز الإنسان عن مقاومة المعنى، يهاجم صاحبه. وحين لا يجد في الحجة ثغرة، يبحث في حاملها عن تهمة. إنهم لم يناقشوا القرآن؛ بل قالوا عن النبي ﷺ: ساحر كذاب. وهكذا تفعل النفوس العاجزة في كل عصر: تنقل المعركة من الفكرة إلى الشخص، ومن البرهان إلى التشويه.

ثم تفجّر عجبهم الأكبر:

(أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ).

سبحان الله! يتعجبون من الواحد، ولا يتعجبون من الآلهة المتعددة! يستغريون أن يكون لهذا الكون المتناسق إله واحد، ولا يستغريون أن تنازعه أربابٌ شتى!

ولكن التوحيد لم يكن عندهم مسألةً عديدةً فحسب. لم تكن المشكلة أن تُنقص الآلهة من ثلاثمائة وستين إلى واحد؛ بل أن التوحيد يهدم شبكةً كاملة من المصالح والمراتب والوسائط. الإله الواحد يعني أن السيادة واحدة، وأن التشريع واحد، وأن البشر جميعاً عبيدٌ في مقام واحد، وأنه لا يملك أحدٌ أن يتسلط على ضمائر الناس باسم صنمٍ أو نسبٍ أو طبقة.

ولهذا كان توحيد الله تحريراً للإنسان. فمن قال: لا إله إلا الله، فقد نزع عن عنقه سلاسل الأرباب الصغار؛ لكنه في الوقت نفسه نزع عن نفسه وهم الربوبية على الآخرين.

وهذا ما أخاف الملائ.

(وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ).

في لفظ (انطلق) حركةٌ مسرعة؛ كأن المجلس لم يعد يحتمل بقاءهم أمام صوت الحق، فانصرفوا يحشد بعضهم بعضاً. والحقيقة إذا أربكت الباطل دفعته إلى الحركة الصاخبة؛ لأن الباطل يخشى لحظة السكون التي يفكر فيها أتباعه منفردين.

قالوا:

(إِنَّ أَمْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى الْهَتِكُمْ).

يا للمفارقة! صار الباطل يحتاج إلى صبر! فالحق يطلب من المؤمن أن يصبر على أذى الطريق، والباطل يطلب من أتباعه أن يصبروا على أصنامهم. وحين تصبح العقيدة الموروثة عاجزة عن الدفاع عن نفسها، يتحول بقاؤها من اقتناع إلى تعصب، ومن برهان إلى توصية جماعية: اثبتوا عليها، ولا تسمعوا، ولا تفكروا.

إنهم يقولون: (أَمْشُوا)؛ أي لا تفقوا عند هذا الكلام، لا تمنحوه فرصةً لينزل إلى أعماقكم. فرب آية واحدة لو أعطيت لحظة صدقٍ لهدمت في القلب أصنام عمرٍ كامل.

ثم قالوا:

(إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ).

أي إن وراء دعوة التوحيد غرضاً خفياً، ومشروعاً للاستيلاء والزعامة. وهذه تهمة قديمة يواجه بها أهل المصالح دعوات الإصلاح: يفتشون عن النية الخبأة ليهربوا من الحجة الظاهرة.

لكن في العبارة معنى يكاد ينطق رغهم: نعم، هذا شيء يُراد؛ ولكن الذي يريده هو الله! يريد أن يطهر الأرض من العبودية لغيره، وأن يرد الإنسان من فوضى الأرباب إلى وحدة الرب، ومن ذلّ التعلق بال مخلوق إلى عزّ السجود للخالق.

(مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ).

لم يجعلوا الحقَّ حقًّا بذاته، بل قاسوه بما ألفوه وسمعوه. وهنا يظهر صنمٌ خفيٌّ أخطر من الأصنام الحجرية: صنم المألوف. كم من إنسانٍ لا يرفض الفكرة لأنها باطلة، بل لأنها جديدة على سمعه! وكم من حقيقةٍ ضاعت لأن الناس سألوا: هل ورثناها؟ بدل أن يسألوا: هل هي حق؟

ثم أصدروا حكمهم:

(إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ).

أي: ما هذا إلا كذبٌ مصنوع. لكن القرآن، وهو يورد مقاتلهم، يكشف اضطرابهم: بدأوا بالعجب، ثم بالتهمة، ثم بالتحريض، ثم بادعاء المؤامرة، ثم بالاحتجاج بالموروث، ثم بالحكم الجازم. إنها مراحل نفسٍ لم تجد جواباً عن الحقيقة، فصنعت حولها طبقاتٍ من الضجيح.

أهم خزائن الرحمة؟

(الآيات 8-11)

(أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ ۖ أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۖ أَمْ لَهُمْ مَلَكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يُرْتَقَوْنَ فِي الْأَسْبَابِ ۖ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ)

هنا يسقط القناع عن حقيقة الاعتراض:

(أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا).

لم يقولوا: أنزل عليه الذكر؟ بل أضافوا: (مِنْ بَيْنِنَا). إنه وجع المقارنة، وحسد الاصطفاء، واعتراض النفس على قسمة الله. لم يؤلمهم أن ينزل الذكر، بل أن ينزل على محمد ﷺ دونهم.

وما أكثر ما يختبئ الحسد خلف الأسئلة الفكرية! قد يظن الإنسان أنه يناقش الفكرة، بينما هو في الحقيقة مجروح من صاحبها. وقد يردُّ الخير لا لأن الخير ناقص، بل لأنه لم يأت على يديه.

إنهم يريدون أن يملئ المجتمع على السماء من تختار، وأن تخضع النبوة لموازين الجاه والمال. لكن الوحي ليس منصباً انتخابياً، والرحمة لا تستأذن كبراء الأرض حين تختار مجراها. (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي).

قال: (ذِكْرِي)، فأضاف الذكر إلى ذاته العلية؛ تكريماً له، وكأن الله يواجه ضجيجهم بنسبة القرآن إليه: هذا ذكري، فلا تنال منه تهمكم.

وهم ليسوا بجوار الشك، بل (فِي شَكٍّ)؛ غارقون في داخله. والشك هنا ليس حيرة الباحث المتجرد، وإنما غطاءً ثواري تحت إرادة الرفض. ولذلك انتقلت الآية إلى ما هو أَرَهَبُ:

(بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ).

لفظة (لَمَّا) تحمل إنذاراً؛ أي لم يذوقوه بعد، ولكنهم إن ظلوا على استكبارهم فالمآل آتٍ والعذاب يُذاق؛ لأن الذوق اتصالٌ مباشر لا يبقى معه مجال للجدال. كانوا يتحدثون عن الوحي من وراء حجب الظن، فإذا جاء العذاب صار الأمر خبرةً لا فكرة.

ثم تأتي الأسئلة التي تهدم أوهامهم من جذورها:
(أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ).

يا لجمال التعبير! النبوة رحمة، والوحي رحمة، والاصطفاء رحمة؛ وهذه الرحمة لها خزائن لا تنفذ. فمن أعطاهم مفاتيحها حتى يمنعوا محمداً ﷺ منها؟ ومن جعلهم حراساً على فضل الله، يفتحون لمن أحبوا ويغلقون عن كرهوا؟
وتأمل الاسمين: (الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ).

هو العزيز؛ فلا يغلبه اعتراض المعترضين، ولا يمنع عطياه حسد الحاسدين. وهو الوهاب؛ يعطي ابتداءً بلا استحقاقٍ يلزمه، ويختار من يشاء بحكمة، ويهب من خزائنه ما لا يستطيع الخلق أن يمنحوه ولا أن يمنعوه.

واجتماع الاسمين يملأ القلب طمأنينة: فقد يهب الكريم ثم يعجز عن حماية هبته، وقد يقدر العزيز ثم لا يجود؛ أما الله فهو العزيز الوهاب: عطاؤه صادر عن قدرة، وقدرته مقترنة بجود. وهذا المعنى سيمتد في السورة كلها: يهب لداود ملكاً وحكمة، ولسليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، ولأيوب أهله ومثلهم معهم. فالسورة التي افتتحت باعتراضهم على موضع الهبة سترتهم نماذج من فيض الوهاب، لتقول لهم: ليست خزائن الله على مقاييسكم، ولا عطياه رهينة رضاكم.

ثم يرتفع التحدي:

(أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ).

إن كانوا يملكون السماوات والأرض، فليصعدوا في معارجها، وليتولوا تديرها، ولينعوا الوحي من النزول! إن من يعترض على اختيار الله كأنه يدعي ضمناً أن له نصيباً في ملكه وتديره.

(فَلْيَرْتَقُوا): في اللفظة سخرية تهوي بالكبرياء وهي تتظاهر برفعه. اصعدوا إذا إن كنتم تملكون الأسباب! ارتقوا إلى السماء، وأغلقوا أبواب الرحمة، وغيروا أقدار الله!

لكنهم لا يملكون أن يرتقوا؛ لأنهم أسرى الأرض، بل أسرى ذواتهم.

ثم يأتي الحكم عليهم في صورة شديدة الإيجاز:
(جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ).

سمّاهم جنداً على سبيل التهوين؛ إنهم تجمعٌ صغيرٌ مهما كثر عددهم. ولفظة (مَا) تُشعر بالتحقير والإبهام: جندٌ ما، جماعةٌ لا وزن لها أمام سلطان الله. والأعجب أن الآية تصفهم بـ (مَهْزُومٌ) قبل أن تقع هزيمتهم في أعين الناس. لأن المستقبل إذا أخبر به الله صار في يقينه كأنه حاضر. كانوا يومئذٍ أصحاب الصوت والسطوة في مكة، والمؤمنون مستضعفين؛ لكن القرآن لم ينظر إلى ميزان اللحظة، بل إلى حقيقة المآل. إن الباطل قد يكون غالباً في صورة المشهد، وهو مهزومٌ في جوهر المصير. وقد يكون الحق محاصراً في المكان، لكنه ممتدٌ في الزمان. فلا تُخدع بكثرة الجند؛ فالقوة التي انفصلت عن الله تحمل بذرة انهيارها في داخلها، وإن تأخر ظهور الشقوق.

وهنا تنهى السورة لفتح سجلّ الأحزاب السابقة: قوم نوح، و عاد، وفرعون، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة. لقد اختلفت أسماؤهم، وتبدلت حضاراتهم، وتنوعت قوتهم، لكن مرضهم كان واحداً: العزة بالإثم، والشقاق مع الوحي، والاستكبار عن الإنابة. وسيتردد فوق خرائطهم جميعاً السؤال الصامت:

أين ذهبَت تلك العزة التي منعهم من السجود؟ وأين مضت الأصوات التي كانت تملأ الأرض؟ وأين الجند حين نزل أمر الله؟

لم يبقَ منهم إلا العبرة، وبقي القرآن ذا الذكر؛ يذكّرهم بعدما صاروا هم عاجزين عن أن يذكروا أنفسهم.

الأحزاب التي اجتمعت على التكذيب وتفرقت في الهلاك

(الآيات (12-16)

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٤﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ حَقَّ عِقَابٍ ﴿١٥﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ)

بعد أن قال عن مشركي مكة:

(جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ)

فتح أمامهم سجل الأحزاب الماضية، ليرى أن الباطل، مهما اختلفت راياته، ينتمي إلى جيش واحد، وأن المكذبين، وإن فصلت بينهم القرون واللغات والبلدان، تشابه قلوبهم حتى كأنهم يتواصون بالكلمة نفسها.

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ).

تبدأ القائمة بقوم نوح؛ أولئك الذين لبث فيهم نبيهم زمناً طويلاً، يطرق أبواب قلوبهم ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، فلم يزد أكثرهم إلا فراراً. إن طول الإمهال لم يرققهم، بل منح عنادهم زمناً أطول ليزداد تصلباً.

ثم:

(وَعَادٌ).

قومٌ رأوا قوتهم في أجسادهم وعمرانهم، فقالوا في غرور الحضارة: من أشد منا قوة؟ فجاءهم الجواب لا في صورة مناظرة، بل في ريح لا تُرى، تحمل أجسادهم الهائلة كأنها أعجاز نخل خاوية. ليعلم الإنسان أن الله لا يحتاج إلى قوة أكبر من قوته ليهزمه؛ يكفي أن يسلط عليه مخلوقاً لطيفاً لا تمسكه اليد.

ثم:

(وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ).

وصفه بالوتد؛ والوتد يوحى بالثبات والرسوخ. قـيلـت فيـه أقـوال، ومـنـها أن لـه جـنـوداً ومـلـكاً ثابـتاً، أو أنه كان يعذب الناس بالأوتاد. وأياً كان التفصيل، فإن الصورة ترسم طاغيةً رسخ سلطانه في الأرض حتى بدا كأن ملكه لا يُقتلع.

ولكن ما قيمة الأوتاد إذا جاء أمر الله؟ إن الطغيان يحفر أوتاده في الأرض، بينما قضاء الله يأتيه من حيث لا يملك أن يغرس وتدًا. فرعون الذي أعلن علوه غلب بالماء؛ والعجيب أن الماء نفسه الذي حمل موسى رضيعاً إلى قصره، حمل فرعون غريقاً إلى هلاكه. ما جعله الله طريق نجاةٍ للمستضعف جعله طريق فناءٍ للمستكبر.

ثم:

(وَتُحَدِّثُ).

أصحاب الجبال المنحوتة والبيوت الراسخة؛ كأنهم أرادوا أن يجعلوا من الصخر ضمناً ضد الفناء. لكن الصيحة لم تحتج إلى هدم الجبال؛ دخلت إلى القلوب التي احتمت وراءها، فإذا الحصون قائمة وأصحابها جاثمون.

(وَقَوْمٌ لُّوطٍ).

قومٌ لم يكتفوا بانحراف الفطرة، بل جاهرُوا به وحاصروا الطهر، حتى صار النقاء في مدنتهم غريباً، وصارت الجريمة عرفاً، والحياء تُهمةً تستوجب الإخراج. وحين ينقلب ميزان المجتمع إلى هذا الحد، يصبح العذاب إعادةً عنيفةً للأشياء إلى مواضعها.

(وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ).

أصحاب الشجر الملتف والنعم والظلال؛ خانوا ميزان المعاملة كما خان غيرهم ميزان الاعتقاد والأخلاق. فليس الإفساد في الأرض أن ينكر المرء الله بلسانه فقط، بل أن يظلم خلقه في كَيْلٍ أو ميزان، وأن يجعل السوق ميداناً لاقتراس الضعيف.

ثم جمعهم القرآن:

(أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ).

أولئك هم الأحزاب حقاً؛ أممٌ عظيمة، وملوكٌ وأقوامٌ وحضارات. فإذا كان أولئك قد هلكوا، فما وزن هذا الجند الصغير الذي يقف في مكة معترضاً على رسالة محمد ﷺ؟

إن اللفظة تربط الماضي بالحاضر: أنتم لستم بدعاً في التكذيب، وما تقولونه ليس اكتشافاً فكرياً جديداً، أنتم الحلقة الأخيرة من سلسلة قديمة. تتغير الأزياء، وتبدل وسائل القوة، لكن الكبر واحد، وموقف النفس من الوحي واحد.

ثم اختصر تاريخهم جميعاً في جملة:

(إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ).

كل قوم كذبوا رسولهم، ومع ذلك قال: (كَذَّبَ الرُّسُلَ)؛ لأن تكذيب رسول واحد تكذيب لأصل الرسالة كلها. فالأنبياء لا يتنافسون في دعوات متناقضة، بل يخرجون من مشكاة واحدة؛ ومن ردّ واحداً منهم لأنه رسول الله، فقد ردّ الموكب كلّها. (فَحَقَّ عِقَابٌ).

لم يقل: فنزل بهم العقاب، بل حقّ؛ أي ثبت ووجب بعد أن استوفوا أسباب الهلاك وأصروا عليها. والله لا يجعل على عباده، ولا يأخذهم دون إنذار؛ لكنه إذا أقام عليهم الحجة، وأهلهم، ثم اختاروا العناد، صار العقاب حقاً بالعدل. وأضاف العقاب إلى نفسه: (عِقَابٌ). وفي هذه الإضافة مهابة تقطع النفس. فما أضعف المخلوق حين يكون خصمه بشراً، فكيف إذا صار في مواجهة عقاب العزيز؟ ثم يعود السياق إلى مكذبي مكة:

(وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً).

لفظة (هَؤُلَاءِ) تكاد تشير إليهم وهم حاضرون؛ تحقيراً لشأنهم بعد ذكر الأمم العاتية. وما ينتظرون إلا صيحة واحدة. لا تحتاج النهاية إلى جيوش متتابعة، ولا إلى ضربات كثيرة؛ أمرٌ واحد، وصوتٌ واحد، ولحظة واحدة، فإذا العالم الذي يتنازعون عليه قد انطوى. (مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ).

أي لا رجوع بعدها ولا إفاقة، ولا مهلة بين وقوعها وتمام أثرها. وقيل: لا مقدار ما بين حلبي الناقة. والمعنى في كل ذلك يرسم زمناً لا يتسع لاستدراك. إن الإنسان يعيش كأن بينه وبين الموت مفاوضات طويلة، وكأن الساعة ستبعث إليه قبل مجيئها إشعارات متكررة؛ لكن القرآن يقول: (صَيْحَةً وَاحِدَةً). والواحدة لا تعطيك فرصة بين الأولى والثانية، لأنه لا ثانية هناك.

ثم يبلغ الاستهزاء ذروته:

(وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ).

القِطْعُ: النصيب والكَّاب أو الصحيفة التي كُتِب فيها نصيب الإنسان. إنهم يقولون في تهكم: أعطنا الآن نصيبنا من العذاب الذي تعدنا به، ولا تؤخره إلى يوم الحساب!

يا له من جرأة تنشأ من طول الإمهال! حين لا ينزل العقاب فور المعصية، يظن الغافل أن الإنذار فارغ، وأن صمت السماء عجز، وأن تأخير الله نسيان. ولا يعلم أن الإمهال مساحة رحمة؛ وأنه إن حوّلها إلى استهزاء، فقد جعل من الرحمة حجةً عليه.

تأمل كيف نادوه: (رَبَّنَا)، لكن ربوبية الله لم تتحول في قلوبهم إلى خشوع؛ صارت كلمةً على ألسنتهم في مقام السخرية. فليس كل من نطق باسم الرب عبداً، حتى يثر اعترافه خضوعاً.

والإنسان قد يستهزئ بما لم يذقه؛ فإذا ذاقه لم يبق في فمه موضع للتهكم. لذلك سبق قوله تعالى: (بَلْ لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ). جرأتهم بنتُ الجهل، وسخريتهم ثمرةُ المسافة بينهم وبين الحقيقة.

الصبر الذي يفتح أبواب القوة

الآيات (17-18)

(اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُثِيِّ وَالْإِشْرَاقِ)

بعد ضجيج التكذيب والسخرية والتحدي، يجيء الخطاب إلى النبي ﷺ:

(اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ).

لم يأمره أن يبدد قوته في مطاردة كل كلمة، ولا أن يجعل قلبه ساحة دائمة لأصواتهم؛ وإنما قال: اصبر. فبعض الأقوال لا تُهزم بالرد عليها، بل بالصبر حتى يكشف الزمن فراغها، ويكشف الثبات صدق صاحب الرسالة.

والتعبير دقيق: (عَلَى مَا يَقُولُونَ). فالكلمة المؤذية حملٌ يوضع على القلب، والصبر قدرةٌ روحية على حمله دون أن ينكسر القلب أو يخرف عن الطريق.

لكن الله لا يأمر نبيه بصبرٍ مجردٍ بارد، بل يفتح له نافذةً على موكب الأنبياء: (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ).

كأن الذكر زاد الصابرين. حين يشتد عليك الطريق، لا تنظر إلى خصومك وحدهم؛ انظر إلى الذين ساروا قبلك، وكيف عبروا الابتلاء، وكيف كانت لهم من الله عناية. وأول ما وصف به داود عليه السلام أنه:

(عَبْدًا).

قبل أن يذكر ملكه وقوته وتسبيح الجبال معه، أثبت له مقام العبودية. وهذه قاعدة السورة كلها: أعظم ألقاب الأنبياء ليس الملك ولا القوة ولا المعجزة، بل أن يُنسب العبد إلى ربه: عبداً.

إن الملك قد يرفع الإنسان فوق الناس، أما العبودية فترفعه عند رب الناس. والقوة قد تجعل المخلوق مهبطاً في الأرض، أما الانكسار لله فيجعله محبوباً في السماء.

ثم قال:

(دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ).

الأيد: القوة. وكان داود قوياً في العبادة، قوياً في الحكم، قوياً في مواجهة الباطل. لكن القرآن لا يمدح القوة لذاتها؛ فقد سبقت بقوله: (عَبَدْنَا)، ولحقت بقوله: (إِنَّهُ أَوَّابٌ). وهنا يظهر الميزان القرآني للقوة: القوة التي لا تسبقها العبودية ولا تصحبها الإنابة قد تتحول إلى طغيان. أما داود، فقوته واقعة بين وصفين من أشرف أوصاف الروح: عبدٌ أَوَّابٌ. (إِنَّهُ أَوَّابٌ).

الأَوَّاب كثير الرجوع إلى الله. واللفظة بصيغتها توحى بالتكرار؛ لا يرجع مرةً ثم يكتفي، بل كلما شغله شيء عاد، وكلما مسّه تقصير رجع، وكلما رأى نعمةً رجع بالشكر، وكلما نزل به بلاء رجع بالافتقار.

إن الإنابة ليست فقط رجوع المذنب من المعصية؛ إنها حركة القلب المستمرة نحو الله. يفرح فيرجع إليه حامداً. ويحزن فيرجع إليه شاكياً. ويقوى فيرجع إليه متواضعاً. ويضعف فيرجع إليه مستعيناً.

وهذا هو سر القوة الحقيقية: أن تعرف إلى من ترجع.

ثم يعرض القرآن مشهداً منسوجاً من التسبيح والضوء:

(إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُثِيِّ وَالْإِشْرَاقِ).

الجبال، رمز الصمت والثقل والجمود، تصير مع داود جوقاً للتسبيح. كأن حرارة الذكر في قلبه امتدت إلى الصخور، فأيقظت فيها العبادة الكامنة.

قال: (مَعَهُ)، ولم يقل فقط: يسبحن له أو خلفه. إنها صحبةٌ عجيبة في محراب الكون؛ نبيُّ يسبح، وجبالٌ تردّد معه. لا يعود الذاكر وحيداً، ولو خلا من البشر؛ فالكون كله مأهولٌ بالعبادة، وكل ذرة فيه تعرف ربها بطريقتها.

(بِالْعُثِيِّ وَالْإِشْرَاقِ).

العُثِيُّ حين تميل الشمس إلى الغروب، والإشراق حين يصفو ضوء الصباح. كأن يوم داود محصور بين تسبيحتين: تسبيحة نور يولد، وتسبيحة نور يرحل. يبدأ يومه بالله وينتهي بالله؛ وما بين البدء والختام ملكٌ وقضاءٌ وجهاد، لكنها جميعاً محمولة على نعمة الذكر.

إن العُثِيُّ والإشراق ليسا وقتين فحسب، بل حالان للنفس: لها إشراقٌ حين تنفتح لها أبواب النعمة، ولها عُثِيُّ حين يهبط عليها ظل الحزن. والمؤمن يسبح في الحالين؛ فلا يعبد في الضوء وينساه عند الأفول.

حين يصبح الكون محراباً لصوت العبد الأواب

الآيات (19-20)

(وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ)

لم تكن الجبال وحدها في محراب داود:

(وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً).

الطير التي طبيعتها الانتشار في الفضاء، تُجمع حول صوته. الجبال ثابتة فتسبح، والطير محلقة فتُحشر؛ وكأن الله جمع لداود أطراف الصورة كلها: ثبات الأرض وخفة السماء، صمت الصخر وتغريد الطير.

لفظة (مَحْشُورَةً) ترسم المشهد حياً: أسرابٌ جمعت، وأجنحةٌ توقفت عن شتاتها، وكونٌ يصغي إلى عيدٍ امتلأ قلبه بذكر الله.

إن القلب إذا صدق في تسبيحه أحدث من حوله نظاماً؛ لأن الطاعة في جوهرها انسجامٌ مع الحقيقة الكبرى التي قام عليها الكون. والمعصية هي النشاز؛ صوتٌ خارج عن لحن الوجود الساجد.

(كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ).

أي كلٌّ يرجع معه إلى التسبيح والطاعة. وتكرار لفظ (أَوَّابٌ) بعد وصف داود بها يجعل الإنابة كأنها نعمة انتقلت من قلب النبي إلى الموجودات من حوله.

فالعبد الأواب لا يرجع وحده؛ إنه يوقظ في محيطه معنى الرجوع. هناك قلوبٌ إذا جلست إليها تذكرت الله من غير أن تعظك، لأن سميتها نفسه يدل عليه. وهناك أرواحٌ إذا نطقت بالذكر شعرت أن العالم من حولها أكثر صفاءً.

ثم ينتقل السياق من محراب العبادة إلى ميدان السلطة:

(وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ).

لم يقل: وآتيناه الملك فقط، بل شددنا ملكه؛ قوّيناه، وثبتناه، وربطنا أركانه. والملك موطن اضطرابٍ دائم؛ تهدده الخصومات والأطماع وتقلب الولاءات، لكن الذي يشدُّ الملك حقاً ليس كثرة الحرس، بل تأييد الله.

وهنا صلةٌ دقيقةٌ بين التسبيح والتمكين: فالذي كانت الجبال تسبح معه هو الذي شد الله ملكه. ليست العبادة هروباً من مسؤولية الأرض؛ إنها التي تطهر صاحب القوة ليحملها دون أن تتحول في يده إلى فساد.
(وَأَيَّتِنَاهُ الْحِكْمَةَ).

القوة وحدها لا تصنع ملكاً صالحاً. قد تشدُّ السلطان من الخارج، لكنها لا تمنعه أن يتصدع من الداخل. لذلك أعطي داود الحكمة: أن يضع الشيء في موضعه، ويرى ما وراء ظواهر الأمور، وألاً نخطفه حرارة اللحظة عن ميزان الحق.
ثم:

(وَفَصَلَ الْخِطَابِ).

تعبيراً بالغ الروعة؛ كلامٌ يفصل بين الحق والباطل، وبين المتشابهات، ويبلغ المعنى بلا التواء ولا فضول. فكما يحتاج الحاكم إلى قوة تحمي العدل، يحتاج إلى بيانٍ يكشفه، وقلبٍ حكيمٍ يميزه.

وفصل الخطاب ليس كثرة الكلام، بل إحكامه. ليس أن تقول كل ما تعرف، بل أن تقول ما ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، بالقدر الذي يكشف الحق ولا يدفنه تحت ركام الألفاظ.

وهذه الآية ترسم أركان القيادة الربانية:

(شَدَدْنَا مُلْكَهُ): قوةٌ تحمي النظام.

(وَأَيَّتِنَاهُ الْحِكْمَةَ): بصيرةٌ تهدي القوة.

(وَفَصَلَ الْخِطَابِ): بيانٌ يقيم الحجة ويفصل الخصومة.

لكن السورة لا تترك داود في مشهد القوة المهيبة؛ بل ستأخذه فجأةً إلى لحظة امتحان دقيقة، ليظهر أن الملك المشدود لا يغني عن مراقبة القلب، وأن الحكمة لا تعني أن الإنسان لا يبتلى، وإنما تعني أن يعرف كيف يعود إذا تنبّه.

الخصمان اللذان تسورا الحراب

(الآيات (24-21))

(وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْحَرَابَ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَقَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۖ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً وَلِيَ نَعِجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۖ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِجَتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ)

تبدأ القصة بسؤال يشد النفس:

(وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ).

ليس خبراً عابراً، بل نبأ؛ خبر عظيم يحمل وراء ظاهره كشفاً للقلب. ثم يأتي الجمع:

(إِذْ تَسَوَّرُوا الْحَرَابَ).

قال: (الْخَصْمِ) بلفظٍ يصلح للجماعة، ثم (تَسَوَّرُوا). لقد دخلوا من فوق السور، لا من

الباب؛ فجاءوا داود من جهة لم يتهأ لها.

والحرب موضع الخلوة والعبادة، لكنه صار فجأة موضع امتحان. وكأن السورة تقول: قد

تأتيك الفتنة وأنت في محرابك، وقد يختبر الله عدلك في اللحظة التي تظن نفسك فيها أبعد ما

تكون عن صحب الحياة.

(فَقَزِعَ مِنْهُمْ).

داود ذو القوة والملك يفزع؛ لأن المباغته تهز الطبيعة البشرية مهما بلغت قوتها. والقرآن

يعرض الأنبياء في بشرتهم الكريمة، لا تماثيل جامدة لا تشعر. لكن الخوف العارض لا

ينقص مقام العبد؛ إنما يظهر مقامه في الوجهة التي يمضي إليها بعد الخوف.

قالوا:

(لَا تَخَفْ).

والعجيب أنهم هم الذين اقتحموا عليه محرابه، ثم أخذوا يطمئنونه! وهذا يزيد المشهد غرابة وإيقاظاً.

(خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ).

لم يبدأوا بتفاصيل القضية، بل نَحَّصُوا طبيعتها: هنا بغى يحتاج إلى ميزان. ثم خاطبوه بما يليق بالحاكم:

(فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ).

ثلاث درجات:

أن يحكم بالحق. وألاً يجوز أو يجاوز العدل. وأن يهديهما إلى وسط الطريق واستقامته. فالقاضي الرباني لا يعلن الحكم فقط، بل يدل المتخاصمين على الطريق الذي يصلح ما بينهما. إن العدالة ليست مطرقةً تنهي القضية، بل نورٌ يعيد العلاقات إلى موضعها الصحيح. ثم عرض أحدهما الخصومة: (إِنَّ هَذَا أَخِي).

بدأ بالأخوة قبل الشكوى؛ كأن القرآن يذكر أن الخصومة لا ينبغي أن تحو الأصل الإنساني الجامع. هذا أخي وإن ظلمني. وما أجمل أن يبقى اللسان وفيّاً للرابطة حتى وهو يصف الجرح!

(لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِيَّ نَجَّةٍ وَاحِدَةٌ).

المفارقة صارخة: تسع وتسعون في مقابل واحدة. إن الطمع لا ينشأ دائماً من الفقر؛ بل كثيراً ما يشتد عند الامتلاء. الذي لا يملك قد يطلب حاجته، أما الذي يملك تسعاً وتسعين ثم يمد عينه إلى الواحدة، فشكلته ليست في النقص، بل في قلب لا يعرف الاكتفاء. وهذه صورة النفس إذا استولى عليها حب الاستحواذ: لا ترى ما في يدها، بل ما بقي في يد غيرها. تتحول النعم الكثيرة إلى خلفية باهتة، وتصبح نعمة الآخرين الواحدة مركز النظر كله.

(فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا).

أي اجعلني كافلها وضما إليّ. لم ينتزعها بالقوة مباشرة، بل صاغ طمعه في طلب وكلام. فالظلم لا يأتي دائماً بوجه قبيح؛ قد يرتدي لغة الإقناع والترتيب والمصلحة. (وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ).

غلبي بقوة منطقته أو مكاتته وحجته الظاهرة. وهنا مفارقةٌ مع ما سبق من قوله عن داود: (وَفَصَّلَ الْخُطَابَ). فهناك خطاب يفصل الحق، وهنا خطابٌ يستعمل القوة ليغلب الضعيف.

ليست البلاغة فضيلةً بذاتها؛ فقد تكون لساناً للعدل، وقد تصبح سلاحاً يَجَلِّ العدوَّان. ليست العبرة أن تكون قادراً على إقناع الناس، بل أن يكون ما تقنعهم به حقاً. قال داود:

(لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ).

ثم خرج من الواقعة الخاصة إلى قانون في الاجتماع البشري:
(وَأَنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ).

حين تختلط المصالح والأموال والشراكات، تدخل النفس بمنطق المقارنة والاستئثار. والخلطة تكشف أخلاق الإنسان؛ فمن السهل أن يبدو عادلاً حين لا تتقاطع مصلحته مع مصلحة أحد، وإنما يظهر العدل حين يستطيع أن يأخذ ثم يمتنع لأن الله يراه. (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ).

الإيمان هنا ليس فكرةً معلقةً فوق المعاملة؛ إنه القوة التي تمنع يدك من تجاوز حق شريكك. والعمل الصالح هو الترجمة الأرضية لما استقر في القلب. فمن لم يظهر إيمانه في ميزان المال والحق والخصومة، بقي إيمانه دعوى لم يكتمل برهانها. ثم تأتي الكلمة الموجهة:
(وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ).

العدل عند تراحم المصالح مقامٌ نادر. وما أسهل أن يحب الناس الفضيلة في الخطب، وما أصعب أن يحبوها حين تخصم من أرباحهم أو تحد من نفوذهم! وفجأةً انكشف لداود باطن المشهد:
(وَوَظَنَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتْنَاهُ).

علم أن القضية لم تكن خصومةً خارجيةً فحسب، بل امتحاناً موجّهاً إلى قلبه. والفتنة اختبارٌ يكشف المعدن؛ لا لتعليم الله ما خفي عنه، تعالى الله، بل ليظهر للعبد موضع حاجته، ويخرجه من الغفلة إلى اليقظة.

والقرآن لم يفصل لنا طبيعة ما وقع من داود وراء ما حكاه؛ ولذلك يجب الوقوف عند أدب الوحي، وعدم تحميل القصة روايات لا ثبتت، ولا سيما ما يتضمن طعنًا في مقام نبي كريم. فالملقوع به أن الله اختبره، وأنه أدرك موضع الاستغفار، وأن القرآن يريد أن يلفت قلوبنا إلى سرعة إجابته، لا أن يفتح باب الخيال المسيء في حقه.

وحين تنبه داود، لم يبرر، ولم يتصلب خلف هيبة الملك، ولم يقل: أنا صاحب الحكمة وفصل الخطاب.

(فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ).

هكذا سريعاً، فالفاء تختصر المسافة بين التنبه والرجوع. الأواب لا يترك الخطأ يتجذر في نفسه، ولا يمنحه وقتاً ليصنع مرافعةً دفاعية. ما إن يرى موضع التقصير حتى يعود.

ثم:

(وَنَزَرَ كَعْبًا).

لم يقل: ركع فقط، بل نَزَرَ؛ وانحرور سقوطٌ سريع يدل على غلبة الخشوع. كأن جسده لم يطق أن يبقى منتصباً بعدما انكشف للقلب جلال الله.

إنها لحظة عظيمة: ملكٌ قوي، شد الله ملكه، وسخر معه الجبال والطير، ثم يخرُّ على الأرض مستغفراً. هنا تبلغ القوة جمالها الأعلى؛ حين تستطيع الركبتان اللتان تقفان أمام الجيوش أن تخنيا أمام الله.

(وَأَنَابَ).

هذه هي الكلمة التي كانت القصة كلها تمهد لها. لم تكن عظمة داود في أنه ملك لا يختبر، بل في أنه قلبٌ إذا اختبر أناب.

الإنابة ليست مجرد حركة جسد، بل عودة الكيان كله إلى مركزه. العقل يعترف. والقلب يندم. واللسان يستغفر. والجسد يخر. والروح تعود إلى الله.

وهكذا يصبح السجود انتصاراً على النفس؛ لأن الإنسان قد يهزم جيشاً ويبقى مهزوماً أمام كبرائه، أما من استطاع أن يخرُّ لله حين يتبين له الحق فقد انتصر في أشق المعارك.

المغفرة التي لا تحو الزلّة فحسب، بل ترفع صاحبها

(الآيات (25-26)

(فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) ما أسرع الرحمة حين يكون الرجوع صادقاً: (فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ).

الفاء تعقب الإنابة مباشرةً بالمغفرة. استغفر داود، وخرّ راکعاً، وأتاب؛ فجاء الغفران دون إبطاء. إن الله لا يريد أن يعذب القلوب الثابتة بتاريخها، ولا أن يظل العبد الصادق أسير لحظة تجاوزها بالندم.

المغفرة في أصل معناها سترٌ ووقاية؛ فالله لا يحو أثر الذنب فحسب، بل يستر العبد من افتضاحه، ويقيه سوء مآله، ويمنحه بعد الانكسار قدرةً جديدة على السير. ثم لم تكتف الآية بذكر المغفرة:

(وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ).

يا لعظمة هذه البشارة! لم يقل: غفرنا له وانتهى الأمر، بل أخبر أن له قريباً ومرجعاً حسناً. كأن الإنابة الصادقة لم تعد به إلى موضعه الأول فقط، بل فتحت له باباً من القرب. وهذا من أسرار التعامل الإلهي مع عباده: قد تكون لحظة انكسارك الصادق أقرب بك إلى الله من سنوات أعجبت فيها بعبادتك. فالطاعة التي تُنبِت الكبر قد تبعد صاحبها، والتقصير الذي يفتت القلب ندماً قد يرده إلى باب مولاه فقيراً، صافياً، متبرئاً من حوله وقوته. قال: (عِنْدَنَا). والقيمة ليست في أن يكون للإنسان ذكرٌ عند الناس، بل أن تكون له منزلةٌ عند الله. قد يمدحك الخلق وأنت بعيد، وقد يسيئون فهمك وأنت في مقام الزلْفَى. فما أضيق من عاش لعيون الناس، وما أوسع قلب من جعل غايته أن يكون له عند الله قبول. ثم يأتي النداء:

(يَا دَاوُدُ).

نداءً يحمل تشريعاً وتكليفاً. فالمغفرة ليست إعفاءً من المسؤولية، بل إعدادٌ لحملها بصفاءٍ أكبر.
(إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ).

الخلافة هنا تكليفٌ بإقامة أمر الله والعدل بين عباده، لا امتيازٌ شخصي يرفع صاحب السلطة فوق المحاسبة. إنه مؤتمنٌ لا مالك مطلق، ونائبٌ في تنفيذ العدل لا ربُّ للناس. كل سلطةٍ في التصور القرآني عارية، وكل قدرةٍ ودِعة، وكل منصبٍ امتحان. ولهذا لم يقل له: بما أنك خليفة فاصنع ما تشاء، بل قال:
(فَأَحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ).

الحق سابقٌ على الحاكم وأعلى منه؛ فلا يصير الشيء حقاً لأن السلطان قاله، بل يكون قول السلطان مستقيماً بقدر موافقته للحق. والتعبير يقول: (بَيْنَ النَّاسِ)، دون تمييز بين قريبٍ وبعيد، وقوي وضعيف، ومحِب ومبغض. فالعدل الذي يتغير بتغير الأشخاص ليس عدلاً، بل مصلحةٌ متكررة في ثيابه. ثم حذَّره من انخضم الخفي:
(وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى).

لم يقل: لا تعرف الهوى، فالإنسان قد يجد ميلاً في نفسه لا يملكه أول الأمر، إنما قال: لا تتبعه. فالخطر ليس في أن يعرض الهوى، بل في أن يتحول إلى قائد. والهوى سُمِّيَ هَوًى لأنه يهوي بصاحبه. إنه لا يأتي دائماً في صورة شهوةٍ فاضحة؛ قد يأتي في هيئة غضبٍ للذات يسمى كرامة، أو محاباةً تسمى وفاء، أو ظمً للخضم يسمى حزماً، أو طلباً للثناء يسمى خدمةً للحق.

ولذلك كان الحاكم أحوج الناس إلى محاسبة قلبه؛ لأن هواه حين يضل لا يجرح شخصاً واحداً فحسب، بل قد يتحول إلى قانونٍ يجرح أمة.
(فِيضْلِكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ).

الهوى ليس طريقاً موازياً يمكن الجمع بينه وبين الحق؛ إنه يزيح الإنسان عن سبيل الله. وكلما سَلِمَ المرء لهواه قراراً، ابتعد خطوةً عن الطريق ولو ظل لسانه يردد أسماء الفضائل. ثم كشفت الآية الجذر البعيد للانحراف:

(إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ).

لم يقل: بما أنكروا يوم الحساب، بل (بِمَا نَسُوا). فقد يقر الإنسان بالآخرة بلسانه، لكنه ينساها عند القرار؛ وحين تغيب لحظة الحساب عن الوعي العملي يصبح المرء قادراً على الظلم.

نسيان الحساب هو الذي يطلق الهوى من قيوده. فمن تذكّر أنه سيقف وحده أمام الله، وأن المظلوم سيقف هناك أيضاً، وأن المناصب ستسقط، وأن الألقاب ستذوب، خفّ سلطان نفسه عليه.

إن يوم الحساب ليس خبراً عن المستقبل فقط؛ إنه قوة أخلاقية تصلح الحاضر. وكلما كان ذلك اليوم حاضراً في القلب، صار الإنسان أعدل في كلمته، وأطهر في ماله، وأقلّ اعتراضاً بقدرته.

الكون لم يُخلق عبثاً، والعدل ليس تفصيلاً عابراً

الآيات (27-28)

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۖ أَمْ يُجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)

بعد الأمر بالعدل والتحذير من نسيان الحساب، يرتفع السياق من محكمة داود في الأرض إلى هندسة الكون كله:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا).

فالعدل ليس خلقاً منفصلاً عن بنية الوجود، بل هو منسجمٌ مع الغاية التي خلق بها الكون. والباطل ليس مجرد خطأ اجتماعي، بل خروجٌ عن نظام الحقيقة التي قامت عليها السماوات والأرض.

لو لم يكن بعد الحياة حسابٌ يعاد فيه الحق إلى أهله، ويجزى المحسن بإحسانه، ويؤخذ للمظلوم من ظلمه، لكان هذا الوجود - في ظن البشر القاصر - مسرحاً ينطفئ قبل اكتمال القصة. كم من ظالم مات ولم يُقْتَصْ منه! وكم من صالح انطفأ في السجن أو الغربة أو الفقر ولم ير ثمرة صبره! لكن الله لم يخلق الوجود باطلاً؛ ولذلك لا بد من يوم تكتمل فيه العدالة.

(ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا).

إن إنكار الآخرة ليس رأياً محايداً في الزمن القادم، بل سوء ظنٍّ بحكمة الخالق. فمن ظن أن الإنسان يُخلق بعقلٍ يميز الحق، وفطرةٍ تطلب العدل، ثم يموت الظالم والمظلوم نهايةً واحدة بلا حساب، فقد ظن بالكون العبث.

والكفر هنا لا يطفئ مصباح الآخرة فقط؛ بل يطفئ معنى الدنيا أيضاً. لأن الحياة إذا قُطعت عن غايتها صارت حوادث مبعثرة، ولذات عابرة، وآلاماً بلا جواب.

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ).

الفاء تصل سوء الظن بمآله. فمن ظن الخلق باطلاً عاش غالباً كأن أفعاله لا ميزان لها، ثم لقي الحقيقة التي كان ينفيا.

ثم يأتي استفهامان يزلزان كل محاولة للمساواة بين المتناقضات:

(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ).

الإيمان ليس شعوراً باطنياً بلا أثر؛ لذلك اقترن بالعمل الصالح. وفي الجهة الأخرى لم يقل فقط: كالذين كفروا، بل قال: (كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ)، ليكشف أن فساد التصور لا بد أن يريش على الحياة.

ثم:

(أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ).

المتقون جعلوا بينهم وبين غضب الله وقايةً من الطاعة، والفجار شقوا ستار الفطرة والحدود ومضوا في المعصية. أفسوس بين من حبس نفسه عن شهوة يقدر عليها خوفاً من الله، وبين من أطلقها في كل محرم؟ وبين من أعاد الحق وهو قادر على أخذه، ومن بنى مجده على أنقاض الضعفاء؟

قد يبدو الطرفان في الدنيا متقاربين، بل ربما ظهر الفاجر أوسع رزقاً وأعلى صوتاً؛ لكن المساواة الظاهرة مؤقتة، أما الحكم الأخير فصادر عن ربٍ لم يخلق الكون باطلاً.

وهنا يتعلم القلب ألا يقيس عدل الله بمشهد ناقص. نحن نرى صفحة، والله يرى الكتاب كله. وقد شاهد الفصل الذي يتقدم فيه الظالم، لكن القصة لم تنته بعد.

كُتِبَ مُبَارَكٌ لَا يَفْتَحُ كَنْزَهُ إِلَّا قَلْبٌ يَتَدَبَّرُ

(الآية 29)

(كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)

بعد الحديث عن خلق السماوات والأرض بالحق، يأتي الكتاب الذي يهدي الإنسان إلى قراءة ذلك الحق:

(كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ).

جاءت كلمة (كِتَابٌ) تذكراً للتعظيم، كأن المعنى: هذا كتابٌ لا تحيط العبارة بجلاله. ثم قال: (أَنْزَلْنَاهُ)، فالقرآن نازلٌ من العلو، لكنه ينزل ليرفع الإنسان. مصدره السماء، وميدان عمله القلب، وثمرته أن تستقيم الأرض. ووصفه بأنه:

(مُبَارَكٌ).

البركة ثبوت الخير واثباته وامتداده فوق المقاييس المعتادة. فالآية الواحدة قد تسكن قلباً فتغير عمراً، وقد توقظ أمةً بعد سبات، وقد تفتح لعقلٍ واحد أبواباً من المعنى لا تنقضي. بركته لا تنفد بكثرة القراءة؛ بل لعل القارئ يعود إلى الآية التي قرأها مئات المرات، فتفتح له في المرة التالية وجهاً لم يره من قبل. فالقرآن لا يهرم، ولكن القلوب هي التي تتجدد في حضرته.

ثم بين الغاية:

(لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ).

لم يقل: ليمروا عليها، ولا ليحصوا حروفها فحسب، بل ليدبروا. والتدبر من النظر في أدبار الأمور وعواقبها، وتجاوز سطح اللفظ إلى ما وراءه من هداية وارتباط ومآل.

أن تدبر الآية هو أن تركها تدخل عليك، لا أن تمر أنت عليها فقط. أن تسألها: ماذا تكشف لي عن ربي؟ ماذا تكشف عن نفسي؟ أيُّ وهمٍ تهدمه؟ وأيُّ طريقٍ تفتحه؟ وما الذي ينبغي أن يتغير فيَّ بعد سماعها؟

القراءة التي لا تغير شيئاً في زاوية النظر قد تبلغ الأذن ولا تبلغ القلب. وليس المقصود أن يتكلف الإنسان في القرآن معاني بعيدة، بل أن يقف عند هدايته وقوف المحتاج، ويجمع بين دلالة اللفظ ونظم السياق وحياة الروح.

ثم قال:

(وَلَيْتَ ذَكَرُ أُولُ الْأَلْبَابِ).

اللُّبُّ هو العقل الخالص من القشور. ولم يقل: أولو المعلومات؛ فقد يحمل الإنسان علماً كثيراً ولا يحمل لباً يقظاً. العبرة ليست بوفرة ما دخل الذاكرة، بل بما أيقظ البصيرة. والتذكّر يختلف عن مجرد المعرفة؛ إنه استعادة حقيقة كانت مطمورة تحت الغفلة. القرآن يذكر بأنك عبد، وأن الدنيا مر، وأن النعمة أمانة، وأن القوة امتحان، وأن النهاية لقاء. ومن العجيب أن آية التدبر جاءت في وسط قصة داود وقبل قصة سليمان؛ كأنها تقول: لا تقرأ هذه القصص بوصفها أخبار ملوكٍ مضوا، بل تدبرها لتكتشف قصة السلطة في نفسك، وقصة الهوى في قرارك، وقصة الإنابة في ضعفك.

نعم العبد: حين يرث الابن الملك ولا يرث الغرور

(الآيات 30-33)

(وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّفَانَتُ الْجَيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ)

بعد قوله عن الكتاب: (مُبَارَكٌ)، ينتقل السياق إلى هبة أخرى:
(وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ).

الأبناء هبات لا ممتلكات. ومهما اجتهد الوالدان في طلب الذرية وتربيتها، يبقى سر الحياة والنبوغ والصلاح منحةً من الله.

واختيار لفظ (وَهَبْنَا) يعيدنا إلى الاسم الذي ورد في أول السورة: (الْوَهَابِ). اعترض المشركون على هبة النبوة، والسورة تريحهم الآن آثار خزائن الوهاب: يهب النبوة، ويهب الملك، ويهب الأبناء الصالحين، ويهب من يشاء ما يشاء.

ثم امتدح سليمان:

(نِعَمَ الْعَبْدِ).

قد يملك الإنسان ملكاً عظيماً، ثم تكون أعظم شهادة له أنه عبد. لم يقل: نعم الملك، مع أن ملكه من أعظم الممالك؛ لأن قيمة الملك في ميزان السماء ليست في اتساع الأرض التي يحكمها، بل في بقاء القلب خاضعاً لله.

ثم ذكر العلة:

(إِنَّهُ أَوَّابٌ).

مرة أخرى يعود مفتاح السورة. داود أواب، وسليمان أواب. لم يرث الابن عن أبيه الملك فقط، بل ورث منه طريق الرجوع إلى الله.

والوراثة الأثمن ليست أن تترك لولدك داراً أو مالاً أو اسماً، بل أن تعلّمه كيف يعود إلى الله حين تفتنه الدنيا.

ثم يُفتح مشهد الخليل:

(إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ).

الصفائف: الخيل التي تقف على ثلاث وترفع طرف حافر الرابعة، وقفة تجمع الهيبة والاستعداد. والجياد: السريعة الأصيل. كلمات قليلة ترسم خيلاً ممشوقة ساكنة الجسد، محتشدة القوة، كأن السرعة كامنة في عروقها تنتظر الإشارة.

وقد عُرِضَ عليه بالعشي، وهو الوقت نفسه الذي ذُكر في تسبيح الجبال مع داود: (بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ). كأن السورة تضع أماناً مشهدين في التوقيت نفسه: داود في العشي مع التسبيح، وسليمان في العشي أمام الخيل، لتمدن صلة النعمة بالذكر. قال سليمان:

(إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي).

سميت الخيل خيراً لما فيها من منفعة وقوة. فالمشكلة ليست في جمال الخيل، ولا في اقتناء أسباب القوة؛ فقد كانت معدة لمقاصد مشروعة. إنما الخطر أن يستغرق القلب في الوسيلة حتى تغيب عنه الغاية.

وللمفسرين في معنى الآية واتصالها بما بعدها أقوال. ومن أشهرها أن الخيل شغلته عن ذكر أو صلاة حتى غربت الشمس، فتنبه إلى ذلك. وقيل: إن محبته لها كانت عن ذكر ربه ولأجله، أي أحبها لما تخدمه من طاعة. وما دام النص يحتمل ما ذكره أهل العلم، فالأليق ألا نجزم بتفصيل لم يصرح به القرآن؛ لكن المحور الواضح أن سليمان كان يزن محبوباته بميزان ذكر الله، ولم يسمح للخيل أن تستقل عن عبوديته.

(حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ).

قيل: الشمس توارت بالحجاب، وقيل: الخيل غابت عن بصره. والتعبير يحفظ للمشهد إيحاءه: شيء جميل كان حاضراً ثم توارى، وبقي القلب يراجع علاقته بما رأى.

كم من أشياء توارى بالحجاب بعد أن تملأ العين! المال يمر، والجمال يغيب، والقوة تضعف، والمشهد الذي أسر القلب يصير ذكرى. ولا يبقى للإنسان إلا: هل قاده ما أحب إلى الله، أم حبه عنه؟

ثم قال:

(رُدُّوْهَا عَلَيَّ).

فأعاد الخيل إليه، لا ليظل متفرجاً مأخوذاً بجمالها، بل ليتعامل معها بوعي جديد.

(فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ).

ذهب جمهورٌ من المفسرين إلى أنه ضرب سوقها وأعناقها بالسيف؛ وقيل: جعل يمسح بيده على سوقها وأعناقها تفقداً وإكراماً وإعداداً. واللفظ القرآني قال: (مَسْحًا)، ولم يصرح بقتل أو عقر؛ ولذلك فالأحوط الوقوف عند عبارته، وعدم نسبة تصرفٍ بعينه إلى النبي إلا بدليلٍ واضح.

وفي كلا السياقين الذي ذكره أهل التفسير يبقى المعنى الروحي الأعمق: أن سليمان لم يكن عبداً لما ملك. أعاد ترتيب علاقته بالقوة حتى تبقى الخيل في يده، ولا تدخل عرش قلبه. فليس الزهد أن تفر من كل جميل، بل أن تضعه في موضعه: أن تمتلكه ولا يملكك، وأن تستخدمه في الحق، وألا يتحول حبه إلى حجابٍ بينك وبين ربك.

الجسد على الكرسي: امتحانُ الملك حين تُسلب منه الحركة

(الآيات (34-35)

(وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ۖ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)
(وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ).

حتى سليمان، مع نيوته وحكمته وملكه، دخل الامتحان. فاهبات لا تلغي الفتنة، بل قد توسع ميدانها؛ لأن كل نعمة تحمل سؤالها الخاص: كيف ستستعملها؟ ولمن سينسبها قلبك؟ وماذا تكون إن سُلِبَ منك؟
(وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً).

القرآن يوجز ولا يفصل ماهية الجسد. وقد وردت في تفسيره روايات كثيرة، وبعضها من الإسرائيليات التي لا يثبت بها معنى، وبعضها لا يليق بمقام النبوة. ولذلك تتأدب مع صمت النص: تؤمن بأن فتنة وقعت، وأن جسداً أُلقي على كرسيه، ولا نقتحم الغيب بتفصيل لم يقم عليه دليل صحيح.

لكن للصورة - في حدود ما نطق به النص - إيحاءٌ مهيباً: كرسي الملك، رمز السلطان والتدبير، وعليه جسد. والجسد بلا قوة فاعلة صورةٌ للعجز؛ كأن سليمان أُرِي أن الكرسي وحده لا يصنع ملكاً، وأن الجسد إذا سُلِبَ مدد الله صار كلمةً لا تملك تدبيراً. قد يجلس الإنسان على كرسيه، وتحيط به مظاهر النفوذ، لكنه في الحقيقة عاجزٌ عن رد نبضةٍ إن توقفت، أو دفع مرضٍ إن حل، أو إمساكٍ خاطئٍ إن اضطرب. فالعرش لا يلغي هشاشة الجسد.

ثم جاءت العبارة التي تختصر نجاة سليمان:

(ثُمَّ أَنَابَ).

لم تقل الآية: ثم استعاد قوته، أو ثم عاد إلى ملكه؛ بل ذكرت ما هو أعظم: عاد إلى الله. فالحدث الحقيقي في ميزان القرآن لا يقع على الكرسي، بل في القلب.

الفتنة قد تسلبك شيئاً من الخارج لتعيد إليك نفسك من الداخل. وقد يضيق عليك الله في بعض الأسباب حتى تكتشف أن السبب الأكبر كان افتقارك إليه.

قال سليمان:

(رَبِّ اغْفِرْ لِي).

بدأ بالمغفرة قبل الملك. وهذا ترتيب العارفين: طهارة العلاقة بالله مقدمة على اتساع القدرة في الدنيا. لم يقل: رب ردّ إليّ ملكي أولاً، بل بدأ بما يصلح قلبه ومآله.

ثم قال:

(وَهَبْ لِي).

لم يقل: أعطني جزاء قدرتي، أو أعد إليّ ما أستحق، بل استعمل لغة الفقر: هب لي. فالملك مهما اتسع يظل هبة، والعبد مهما علا يظل سائلاً عند باب الوهاب.

(مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي).

ليست دعوة حسدٍ يمنع بها الخير عن يأتي بعده؛ حاشا لني كريم. وإنما طلب آية وخصوصية في الملك تشهد لنبوته، وتلائم المهمة التي اصطفاه الله لها، فلا يلتبس ذلك التسخير الاستثنائي بملك بشري معتاد.

وقد طلب ملكاً عظيماً بعد المغفرة والإنابة، ليعلمنا أن الزهد لا يعني احتقار القدرة، وأن العبد الصالح قد يسأل سعة التمكن إذا كانت في قلبه عبودية تحرّسها.

الخطر ليس في أن تكون قوياً، بل في أن تنسى الواهب. وليس العيب أن تسأل أسباباً واسعة، بل أن تجعلها غايةً مستقلة عن الله.

ثم ختم دعاءه:

(إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ).

جاء بضمير الفصل: (أَنْتَ)، كأن كل الواهبين على المجاز، وهو الوهاب على الحقيقة. الناس يعطونك مما أعطاهم، وقد يمنعونك إذا نفذ ما في أيديهم؛ أما خزائن الله فلا تنقص، وعطاؤه لا يفتقر إلى سببٍ خارج إرادته.

إن سليمان لم يتوسل باستحقاقه، بل باسم ربه. وهذه روح الدعاء: ألا تتقف عند فقرك وحده، بل تدخل إلى الرجاء من باب غناه؛ وألا تنظر إلى ضآلة يدك، بل إلى سعة خزائنه.

الريح والجنُّ تحت الأمر، والقلبُ تحت العبودية

(الآيات (36-40)

(فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۖ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ۚ
وَأَخْرَيْنَ مُقِرِّينَ فِي الْأَصْفَادِ ۚ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۚ وَإِنَّ لَهُ
عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ)

استجاب الله دعاء سليمان:

(فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ).

الريح التي لا تمسكها يد، ولا ترى لها جسماً، والتي يمكن أن تقتلع البيوت وتكسر الأشجار،
صارت جنديَّةً في ملك سليمان.

لكن تأمل الجمع البديع بين القوة واللين:

(تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً).

هي ريح، والريح مظنة العصف؛ لكنها رخاء، لينة طيبة. قوة مطيعة لا فوضى فيها. وهذا
من جمال القدرة حين يهذبها أمر الله: لا يلزم أن تكون القوة خشونة، ولا أن يكون
الافتقار عنفاً. قد تكون أعظم القوى رخاءً؛ تتحرك بهدوء، لكنها تبلغ حيث أمرت.
(حَيْثُ أَصَابَ).

أي حيث قصد وأراد بإذن الله. المسافات التي يقطعها غيره في المشقة تطوى له على متن
الريح. لقد أعطاه الله سلطاناً على ما لا يستطيع الإنسان في عاداته أن يضبطه.
لكن القرآن يظل يحفظ مركز الحقيقة: قال (فَسَخَّرْنَا)، لا: فسخر سليمان لنفسه. ظاهر
المشهد أن الريح تجري بأمره، وباطنه أنها جارية بأمر الله الذي جعل أمر سليمان نافذاً فيها.
ثم:

(وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ).

منهم من يبني في البر، ومنهم من يغوص في البحر. قوى متمردة بطبيعتها، لكنها فُهرت
لتدخل في مشروع العمران. وهنا تظهر سعة ملكة: الهواء مسخر، والبحر مفتوح، والبناء
قائم، والجن يعملون.

(وَأَخْرَجَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ).

ومن لم يصلح للعمل وكفَّ شره إلا القيد، قُرْن في الأصفاد. فالقيادة الحكيمة تعرف أن الطاقات ليست سواء: منها ما يوجّه إلى البناء، ومنها ما يستخرج الكنوز، ومنها ما لا يؤمن شره فيمنع.

والمشهد كله صورةٌ لسلطانٍ لم يُعطَ لأحدٍ على هذا النحو. ومع ذلك فإن الجملة التالية تعيد الملك كله إلى مصدره:

(هَذَا عَطَاؤُنَا).

كل ما سبق، من الريج والشياطين والبناء والغوص، يتقلص أمام كلمتين: عطاؤنا. ما يراه الناس إمبراطوريةً خارقة يراه المؤمن هبةً خرجت من خزائن الله.

إن معرفة النعمة باسمها تهيئ القلب من الغرور. إذا قلت: هذا بذكائي، استعبدك ذكاؤك. وإذا قلت: هذا بقوتي، أخافك زوال القوة. أما إذا قلت: هذا عطاء ربي، شكرت عند حضوره ورضيت عند غيابه.

ثم فوض الله إلى سليمان التصرف:

(فَأَمَّا أَنْ أَمَسَكَ يَغْيَرِ حِسَابٍ).

أعط من تشاء أو أمسك، فقد منحتك سعةً وتفويضاً. وهذا من تمام الملك: ليس مجرد وفرة الموارد، بل حرية التصرف فيها بحكمة.

غير أن التفويض امتحانٌ أشد من المنع. حين يكون الإنسان ممنوعاً يعرف حدوده، أما إذا قيل له: أعط أو أمسك، انكشف ميزانه الداخلي. هل يوجد في موضع الجود؟ وهل يمسك في موضع الحكمة؟ وهل يظل يرى المال عطاء الله حين يصبح القرار في يده؟

ثم لا تتركنا السورة مأخوذِينَ بعظمة الملك الأرضي، بل ترفع أبصارنا إلى المنزللة الأسمى: (وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَّآبٍ).

وهي العبارة نفسها التي قيلت في داود. فاستوى الأب والابن في الغاية وإن اختلفت تفاصيل الملك: كلاهما له عند الله قرب، وكلاهما له حسن مرجع.

لقد كان لسليمان ريجٌ تجري بأمره، وشياطين تبني وتغوص، وخزائن يتصرف فيها؛ لكن القرآن لم يجعل خاتمة فضله واحدة من هذه الخوارق، بل جعلها الزلْفَى وحسن المآب.

فما قيمة أن تسخر لك الريح إذا لم يحمل قلبك شوقاً إلى الله؟ وما قيمة أن تمتلك الأرض إذا لم يكن لك عند رب الأرض مقام؟ وما قيمة أن يطيعك الجن والإنس إذا كانت نفسك لا تطيع الله؟

هنا تكتمل صورة سليمان في السورة: ملكٌ لا ينبغي لأحدٍ من بعده، لكنه عبد. قدرةٌ تمسك بالريح، لكن قلبه متعلقٌ بالوهاب. تفويضٌ في العطاء والمنع، لكن مصيره الأجل. ليس الكرسي، بل القرب.

وبعد مشهد القوة في أوسع صورها، ستنقلنا السورة إلى مشهدٍ مقابل: نبيٌّ سُلِبَ منه العافية، ومسه الضر، وانفضت عنه أسباب الراحة. سنخرج من كرسي سليمان إلى فراش أيوب؛ نتعلم أن العبودية لا تتغير بتغير الحال، وأن الله كما يُعبد في وفرة الملك يُعبد في شدة الألم، وأن الأواب قد يرجع إلى الله راجئاً على الريح، وقد يرجع إليه مثقلاً بالوجع.

أيوب: حين يبقى القلب معاقاً وإن أنهك الألم الجسد

(الآيات (44-41)

(وَإِذْ كُنَّا عَبْدًا لَّيُوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤٤﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٥﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَىٰ لِلْأُولَىٰ
الْأَلْبَابِ ﴿٤٦﴾ وَخَذَ بِيَدِكَ مُضْغَةً فَضْرَبَ بِهَا وَلَا تَحْنُثُ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ
أَوَّابٌ ﴿٤٧﴾)

ما أبعد المسافة في ظاهر المشهد بين سليمان وأيوب!

ذاك ملكٌ تجري الرياح بأمره، وتعمل الجن بين يديه، وهذا عبدٌ أرهقه الضر حتى لم يبق له من أسباب الدنيا إلا قلبٌ يناجي. ذاك في سعة السلطان، وهذا في ضيق البلاء. لكن السورة تجمعهما تحت لقبٍ واحد:

(نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ).

فإنه لا يقيس عباده بما في أيديهم، بل بما في قلوبهم. قد يكون المرء على عرشٍ وهو عبد، وقد يكون على فراش المرض وهو عبد. ليست العبودية شكلاً الحال، بل جهة القلب في الحال.

قال تعالى:

(وَإِذْ كُنَّا عَبْدًا لَّيُوبَ).

مرة أخرى يسبق لقب العبودية كل تعريف. لم يقل: واذكر المبتلى، ولا المريض، ولا فاقد الأهل والمال، لأن البلاء حدث وقع لأيوب، وليس هويته. هويته الحقيقية: عبدنا. وهذه لمسةٌ ترد إلى المبتلى كرامته: أنت لست مرضك، ولا خسارتك، ولا جرحك، ولا الأعوام التي أخذها منك الألم. تلك أحوال تمر بك، أما حقيقتك الكبرى فهي صلتك بالله.

(إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ).

النداء هنا يختلف عن نداء الأمم عند نزول العذاب: (فَنَادُوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ). أولئك نادوا بعد فوات زمن الرجوع، أما أيوب فنادى وهو في قلب العبودية. ذاك نداء الفزع المتأخر، وهذا نداء القرب والافتقار.

ولم يقل: شكا ربه، بل نادى ربه. ثمّة فرق بين أن تشكو الله، وأن تشكو إلى الله. الأول اعتراض عليه، والثاني احتماؤه به. المؤمن لا يتظاهر أمام الله بأنه لا يتألم، بل يحمل ألمه إليه، لأن الصبر لا يعني غياب الوجد، وإنما يعني ألا يقودك الوجد بعيداً عن الله.

قال أيوب:

(إِنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ نَبْصٍ وَعَذَابٍ).

ما أرقّ لفظ (مَسْنِيَ) ! لم يقل: حطمني الألم، أو أهلكني البلاء، بل نسب ما ناله إلى مجرد المس، تأدباً في المناجاة. ومع ذلك سمى حاله: (نَبْصٍ وَعَذَابٍ)؛ تعب ومشقة وألم. يجمع دعاؤه بين الصدق والأدب: لا ينكر شدة الضر، ولا يصف ربه بما لا يليق. ونسبة النصب والعذاب إلى مس الشيطان لا تعني استقلال الشيطان بالخلق والتقدير؛ فالأمر كله لله، ولكن الشيطان قد يكون سبباً في الأذى أو الوسوسة وثقليل الألم على النفس. والأنبياء محفوظون في إيمانهم ورسالتهم، وإن ابتليت أجسادهم وأحوالهم. واللافت أن أيوب لم يصغ دعاءه في صورة أوامر مفصلة. لم يقل: اشفني الآن، ورد لي كذا وكذا؛ بل عرض حاله بين يدي ربه. كأن معرفته برحمة الله أغنته عن كثرة الطلب: يا رب، أنت ترى ما مسني، وتعلم ما يصلحني.

إن بعض الدعاء لا يحتاج إلى بلاغة طويلة؛ يكفي أن تضع ألمك في حضرة من يعلم سره. ثم جاء الجواب عملياً سريعاً:

(ارْكُضْ بِرِجْلِكَ).

مع أن أيوب منهك، أمر بحركة من جهته. والركض هنا الضرب بالرجل. كان الشفاء من الله خالصاً، لكن الله أراد منه أن يبذل ما يستطيع ولو كان حركة قدم. وهذه سنة دقيقة: قد يكون الفرج معجزة، ومع ذلك يطلب الله من العبد خطوة. مرهم تهز جذع النخلة وهي في ضعف الخاض. وموسى يضرب البحر بعصاه. وأيوب يركض برجله. ليس لأن الأسباب تخلق النتائج، بل لأن العبودية تجمع بين التوكل والحركة. افعل ما تطيق، ثم انتظر من الله ما لا تطيق.

فنع الماء:

(هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ).

ماءٌ للظاهر وماءٌ للباطن؛ يغتسل به فيهدأ الجسد من خارجه، ويشرب منه فتسري العافية في داخله. وكان الشفاء أحاط به من جهتين.

ووصفه بالبرودة؛ لأن في البارد سكينَةً للنصب وتهديئةً للحرارة. بعد طول العذاب يأتي الماء بارداً، رقيقاً، بلا صخب. وقد يأتي الفرج كذلك: لا يدخل حياتك كالعاصفة، بل كقطرة ماءٍ باردة تسري في موضع الاحتراق.

أيوب الذي مسّه النصب لم يحتاج إلى قصور سليمان، بل إلى نبيح يأذن الله له أن يكون شفاءً. وهكذا يعلمنا القرآن أن الرحمة لا تُقاس بحجم السبب؛ فقد يضع الله عافيتك كلها في ماءٍ يخرج من تحت قدمك.

ثم تجاوزت الرحمة الجسد إلى الحياة التي تهدمت من حوله:

(وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ).

وعاد لفظ (وَهَبْنَا). فالذي وهب سليمان لداود، ووهب لسليمان الملك، هو الذي وهب لأيوب أهله ومثلهم معهم.

وقد اختلف المفسرون في كيفية رد أهله إليه: أأحياهم الله له، أم جمع شمله بمن بقي منهم وعوضه مثلهم؟ والنص يثبت تمام الهبة والعوض، ولا يلزمنا أن نجاوز بيانه إلى ما لم يقطع به.

المعنى الذي يملأ القلب هو أن الله لم يرمم حياة أيوب بقدر ما فقد فقط، بل أضاف (وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ). فالرحمة الإلهية لا تقتصر دائماً على سد الثقب؛ قد تجعل موضع الكسر أوسع أبواب العطاء.

لكن العوض لا يعني أن الألم السابق كان وهمًا، ولا أن كل مفقود يُنسى بمجرد مجيء البديل. إنما يعني أن الله قادرٌ أن يسكب من رحمته في القلب ما يجعله يحمل الذاكرة دون أن تحطمه.

(رَحْمَةً مِنَّا).

لم يكن ذلك ديناً مستحقاً على الله، بل رحمةً خالصة. وكل شفاء رحمة، وكل اجتماع بعد فراق رحمة، وكل قدرة على الابتسام بعد أعوام الحزن رحمة.

ثم:

(وَذَكَّرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ).

قصة أيوب ليست عزاءً عاطفياً فقط، بل ذكرى لأصحاب العقول الصافية. إنهم يتعلمون منها أن طول البلاء لا يعني النسيان، وأن تأخر الفرج لا يعني غياب التدبير، وأن الجسد قد يضعف دون أن تهزم الروح.

ثم جاء حكمٌ يتعلق بمِيقان حلفها أيوب في حال ابتلائه:
(وَحُذِّ بِيدِكَ ضِعْثًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ).

الضغث حزمةٌ من عيدان أو حشيش يجمع بعضها إلى بعض. وقد رخص الله له أن يبرِّئ يمينه بهذه الصورة التي لا توقع أذى شديداً. وفي تفاصيل سبب اليمين روايات متعددة، فلا نجزم إلا بما أثبتته النص: كان ثمَّ قسم، وأراد الله أن يخرج منه بوجهٍ يجمع بين الوفاء والرحمة.

يا لجمال الشريعة حين تأتي من ربِّ رحيم! لا تحطم الإنسان باسم الوفاء، ولا تفتح له باب العبث بالآيمان. تحفظ حرمة الكلمة، وتفتح منفذ الرفق. وبعد أن عاد إليه جسده وأهله، جاءت الشهادة الإلهية:
(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا).

لم يقل: وجدناه لا يشعر، ولا وجدناه لا يشكو ألمه، بل وجدناه صابراً. كان يتألم وينادي ربه، ومع ذلك سماه الله صابراً. فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، والدمعة لا تهدم الرضا، والأنين الذي لا يتهم حكمة الله ليس اعتراضاً. الصبر ليس أن يتحول الإنسان إلى حجر، بل أن يظل قلبه في جهة الله وهو يتوجع.
(نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ).

هذه هي ثمرة الابتلاء كلها: لم يدفعه الضر إلى الهرب من الله، بل رده إليه. وكل بلاء يعيدك إلى الله، وإن أوجعك، يحمل في باطنه باباً من الرحمة. وكل نعمة تبعذك عنه، وإن أفرحتك، تحمل في باطنها فتنةً خطيرة.

أولوا الأيدي والأبصار: قوة تعمل وبصيرة ترى

(الآيات (45-47)

(وَإِذْ كُنَّا عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۖ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۖ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ)

بعد داود وسليمان وأيوب، ينتقل الخطاب إلى موكب آخر:
(وَإِذْ كُنَّا عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ).

قال في الأنبياء السابقين: (عِبَادَنَا)، وهنا: (عِبَادَنَا). جمعهم في شرف النسبة إليه، كما جمعهم النسب والرسالة. إبراهيم الأب، وإسحاق الابن، ويعقوب الحفيد؛ ثلاثة أجيال، لكن النور لم ينقطع بينها.

إن أجمل ما يورثه الإنسان لذريته ليس الاسم، بل الاتجاه. أن يرحل الأب وتبقى في البيت جهة تشير إلى الله. وأن يتوارث الأبناء معنى العبودية لا مجرد أجداد الأجداد. وصفهم بقوله:

(أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ).

الأيدي كناية عن القوة في العمل والطاعة، والأبصار بصائر ترى الحق وتميز الطريق. وهذان ركنا الإنسان الرسالي: قدرة تنجز، وبصيرة توجه.

فالبصر بلا يد قد يصنع معرفة عاجزة لا تغير الواقع، واليد بلا بصر قد تصنع حركة عمياء تفسد وهي تظن أنها تصلح. أما الأنبياء فجمعوا بين وضوح الرؤية وقوة السعي. إن الدين ليس تأملاً روحياً يعتزل الحياة، ولا حركةً صاخبة بلا فقه؛ إنه بصيرة تتحول إلى عمل، وعمل تهدي بصيرة.

ثم كشف سر صفائهم:

(إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ).

اختصهم الله ببخلة خالصة: تذكر الدار الآخرة. فكأن الآخرة لم تكن خبراً مؤجلاً في عقولهم، بل حضوراً ينقي دوافعهم ويوجه أعمالهم.

وسمى الآخرة (الدَّارِ)، كأنها الدار على الحقيقة، وما الدنيا إلا طريقٌ وخيمة عابرة. فالدار هي موضع الاستقرار، أما هذه الحياة فهما طالت لا تستقر على حال. كانوا يذكرون الدار؛ لذلك هانت عليهم تضحية إبراهيم، وغربة الرسالة، ومفارقة المألوف. فمن رأى الدار الأخيرة لم يعد يقيس الربح والخسارة بعمرٍ قصير. وما أوجع الإنسان حين ينسى الدار! ينفق قلبه كله في ترميم منزلٍ سيخرج منه، ويهمل البيت الذي لن يغادره. يتنافس على مقعدٍ مؤقت، وينسى مقامه بين يدي الله. (وَأَنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ).

مرة أخرى: (عِندَنَا). ليست العبرة بما قيل عنهم في صحف أهل الأرض، بل بما ثبت لهم عند الله. وقد جمع لهم بين الاصطفاء والخيرية: (الْأَخْيَارِ): كانوا أهل خير وطهارة. فالاصطفاء ليس محاباةً فارغة؛ إنه اختيارٌ مقرونٌ بالتزكية والتكليف. ومن اصطفاه الله زاده حملاً لا راحةً، ومسؤوليةً لا ترفاً.

وجوه متفرقة في التاريخ، مجتمعة في الخير

(الآية 48)

(وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ)

تأتي الآية موجزة، كأنها باقة أسماء مضيئة:

(وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ).

لم تُسرد هنا تفاصيل حياتهم؛ فالاسم وحده، حين يكون محفوظاً في كتاب الله، يصبح شاهداً على عمرٍ من الوفاء. كم من صحبٍ ملأ الأرض ثم لم يبق منه شيء، وكم من عبدٍ أخلص لله فبقي اسمه يتلى في المحارب إلى آخر الزمان!

(وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ).

اختلاف الأزمنة والمهام لا يمنع وحدة الوصف. إسماعيل في بيئة، واليسع في قوم، وذو الكفل في سياق؛ لكن الخير يجمعهم.

والخير في القرآن ليس سداً ولا ضعفاً، بل قوةً منضبطة بالحق. هؤلاء الأنبياء واجهوا عناد النفوس وثقل التكليف، فاختاروا أن يبقوا أحياناً في عالم يدفع الإنسان إلى القسوة أو المساومة.

إن أن تبقى خيراً بعد الاحتكاك الطويل بالبشر مقامٌ عظيم. أن ترى الخيانة ولا تصبح خائناً. وأن تُظلم ولا تتخذ الظلم مذهباً. وأن تعرف وجوه الشر، ثم لا تسمح لها أن تعيد تشكيل وجهك.

هذا ذكر: من أخبار الأوَّلين إلى مصير المتقين

(الآيات (49-54)

(هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾
بعد موكب الأنبياء تأتي جملةً فاصلة:
(هَذَا ذِكْرٌ).

هذا الذي مضى ذكرٌ وشرفٌ وتذكير. ليس تاريخاً بارداً، بل طاقةٌ توقظ القلب. وما دام الإنسان يذكر داود عند الفتنة، وسليمان عند القوة، وأيوب عند البلاء، وإبراهيم عند استحضار الدار، فلن يبقى وحيداً في معركته.

ثم انتقل السياق من ذكر الأوَّلين إلى مصير المتقين:
(وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ).

تكررت عبارة (حُسْنَ مَآبٍ) التي قيلت في داود وسليمان، لكنها هنا تشمل كل متقٍ. وكأن الطريق الذي سار فيه الأنبياء مفتوحٌ لأتباعهم بقدر صدقهم: إنابةٌ في الدنيا، وحسن مآبٍ في الآخرة.

والمآب هو المرجع. كل الناس راجعون، لكن ليست كل عودةٍ حسنة. بعضهم يرجع إلى بيت الكرامة، وبعضهم يُساق إلى دار الخزي.
ثم فصل حسن المآب:
(جَنَّاتٍ عَدْنٍ).

العدن هو الإقامة والاستقرار. لا خوف من انقطاع النعمة، ولا قلق من إخراج، ولا اضطراب من تقلُّب الأيام. في الدنيا لا تكتمل لذةٌ إلا ويقف إلى جوارها شبح زوالها؛ أما هناك فالأمن جزءٌ من النعيم.
(مَفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ).

لم يقل: يفتحون أبوابها، بل مفتحة؛ يجدونها مفتوحةً ترحيباً بهم. وفي صيغة التثنية إشعارٌ بأن الأبواب كثيرة، وأنها فُتحت كلها.

كم وقف المؤمن في الدنيا أمام أبوابٍ مغلقة! باب رزق، أو صحة، أو وطن، أو قبول. وكم اضطر إلى طرق أبواب الخلق، فردده بعضهم أو أذله بعضهم! فإذا وصل إلى دار الكرامة، وجد الأبواب مفتحةً له؛ لا حاجب ولا إذلال ولا انتظار.

قال: (لَهُمْ)؛ كأن الأبواب تعرف أهلها.
(مُتَكَيِّنِينَ فِيهَا).

الاتكاء صورة الراحة بعد التعب. طالما وقفوا في الدنيا في مواطن التكليف، وسجدوا، وصبروا، وجاهدوا أهواءهم؛ فإذا دخلوا الجنة زال معنى الإرهاق.
(يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ).

لا يطلبون عن حاجةٍ وخوفٍ من النقاد، بل عن تكريم. يدعون بما يشتهون فيأتيهم. ووصف الفاكهة بالكثرة يزيل عن النفس هاجس القلة؛ لا اقتصاد اضطرار هناك، ولا حساب موارد، ولا خوف من موسم ينتهي.
(وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ).

قاصرات الطرف: قد قصرن أبصارهن ومحبتن على أزواجهن، في صفاءٍ لا خيانة فيه ولا قلق. وهن أترابٌ متقاربات في السن، بما يحقق الأُنس والانسجام.
إن نعيم الجنة ليس لذة الجسد منفصلةً عن طهارة الروح؛ كل علاقة فيها منزهة عن الغيرة المؤذية والخيانة والانكسار. إنها إعادة خلقٍ للحب بعد أن تُنزع منه آفات الدنيا.
ثم يقال لهم:

(هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ).

كان يوم الحساب سبب خوفهم في الدنيا، فأصبح باب أمانهم في الآخرة. تذكره فاستقاموا، فلما جاءهم وجدوا الوعد حقاً.

وفي مقابلة دقيقة مع المكذبين الذين قالوا مستهزئين: (عَجَلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ)، يقف المتقون في اليوم نفسه يتلقون رزقهم وكرامتهم. اليوم واحد، لكنه على قومٍ وعدٍ منجز، وعلى آخرين وعيدٌ محقق.

(إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا).

رِزْقٌ مَنْسُوبٌ إِلَى اللَّهِ، فَلَا تَنَالُهُ آفَةٌ. أَرْزَاقُ الدُّنْيَا تَمُرُّ بِعَرَبِ الْأَسْبَابِ، وَتُتَقَلَّبُ بَيْنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ؛ أَمَّا رِزْقُ الْآخِرَةِ فَهِيَ خَزَائِنٌ لَا تَنْفَدُ.
(مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ).

هذه الكلمة تتم النعيم؛ لأن الشيء الجميل إذا كان سينتهي اختلطت لذته بالحزن. أما هناك فلا نهاية للرزق، ولا نفاذ للشباب، ولا انطفاء للمحبة، ولا لحظة أخيرة. إن الخلود ليس إضافةً زمنيةً إلى النعيم فحسب؛ إنه جزءٌ من طبيعته.

هذا، وإن للطاغين لشرّ مآب

(الآيات (55-58)

(هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسِفُ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ
وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجُ)

بعد مشهد الجنة تأتي كلمة فاصلة:

(هَذَا).

كأن المعنى: هذا ما للمتقين، هذا هو الأمر؛ ثم انظروا إلى الجهة الأخرى:

(وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ).

الطاغيان هو مجاوزة الحد؛ وأصله في الماء حين يرتفع ويتجاوز موضعه. والطاغية إنساناً فاضت نفسه خارج حدود العبودية، فظن أنه يستطيع أن يصنع لنفسه قدراً لا يخضع فيه لله.

تكررت كلمة (مآب): للمتقين حسن مآب، وللطاغين شر مآب. الجميع عائدون؛ والفرق في صورة العودة. كان بعضهم في الدنيا يبدو متقدماً، وبعضهم مستضعفاً، لكن النهايات تعيد

ترتيب الصفوف.

(جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا).

ليسوا واقفين عندها أو سامعين بها؛ بل يدخلون حرّاً ويقاسونه مباشرة. ثم قال:

(فَيَنْسِفُ الْمِهَادُ).

المهاد ما يُوطأ للراحة، بفناء الكلمة في مقام النار على سبيل التهكم المرعب. لقد مهدوا لأنفسهم بالطغيان فراشاً، لكنه فراش من نار.

في الدنيا ربما اتخذ الطاغية من أجساد المظلومين مهاداً لراحته، فإذا به في الآخرة يجد ما مهده لنفسه.

(هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ).

قيل: الحميم الماء البالغ في الحرارة، والغساق ما بلغ غاية البرودة المنتنة أو ما يسيل من أهل النار. المعاني التفسيرية تتعدد، لكن المشهد يجمع ألواناً من العذاب المتضاد: حرارة محرقة وما يقابلها من ألم آخر بالغ الغاية.

قال: (فَلْيَذُوقُوهُ). في مطلع السورة قال: (بَلْ لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ)؛ أما الآن فقد جاء الذوق الذي كانوا يستهزئون به. ما كان خبراً على ألسنة الرسل صار واقعاً يباشر الحواس. (وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا).

أي أصناف أخرى من العذاب تماثله في الشدة، متعددة الأنواع. فالإنسان الذي نوع في الدنيا وجوه الطغيان يلقي من الجزاء ما يلائم عمله.

والقرآن لا يعرض هذه المشاهد للتلذذ بعذاب البشر، بل لإنقاذهم منه قبل وقوعه. إنذار النار رحمة في زمن الاختيار؛ لأنه يوقظ من غفل، ويكسر نشوة الطاغية قبل أن تتحول إلى مصير لا رجعة منه.

الخصومة التي بدأت في الدنيا تستعر في النار

الآيات (59-64)

(هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَنْسُ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ)

تدخل النار أفواجا، لكنها ليست جماعات متآلفة:

(هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ).

الافتحام دخولٌ بشدةٍ ومكابدة؛ كأن موجةً من البشر تُدفع إلى النار دفعا، فيراها السابقون.

في الدنيا كانت كثرة الأتباع تمنح القادة شعورا بالقوة، أما في النار فكل فوج جديد يزيد المكان ضيقا والعذاب اشتعالا. الصحبة التي قامت على الضلال تنقلب عبئا.

يقول بعضهم:

(لَا مَرْحَبًا بِهِمْ).

الترحيب في أصله دعاءٌ بالسعة؛ فكأنهم يقولون: لا سعة لكم هنا. ثم يعللون:

(إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ).

لكن القادمين يردون:

(بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ).

لا أدب، ولا مودة، ولا وفاء. سقطت الشعارات التي جمعتهم، وظهر أن التحالف على الباطل كان رابطة مصلحة، لا رابطة محبة.

(أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا).

أي كنتم سببا في تقديم هذا المصير لنا؛ زينتم، وأغويتم، وقُدتم، وجعلتم الضلال مألوفا. ثم قالوا:

(فَيْسَ الْقَرَارُ).

سَمَّاها قراراً لأن الخروج منها غير ممكن. كانوا في الدنيا يفرون من كل مكانٍ يضيق بهم إلى مكانٍ آخر، أما هنا فقد انتهت الجغرافيا؛ لا طريق إلى خارج العذاب.

ثم يتحول الندم إلى دعاءٍ بالانتقام:

(رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ).

في الجنة يدعو أهلها بفاكهةٍ كثيرة وشراب، وفي النار يدعو هؤلاء بمضاعفة العذاب على رفقاءهم. هناك صفاء ومحبة، وهنا كراهية ولعن.

لقد كانوا في الدنيا يدافع بعضهم عن بعض، ويزين بعضهم ضلال بعض؛ فلما سقطت أوهام المصالح، تمتى كل فريقٍ أن يزداد الآخر ألماً. وهذه نهاية كل صحةٍ لا تقوم على الله: قد تطول المجاملات، لكن الحقيقة الكامنة فيها هي أن كل واحدٍ يستخدم الآخر في طريقه. فإذا جاء الحساب، لعن المتبوع التابع، واتهم التابع المتبوع.

ثم يبحثون في النار عن أناسٍ كانوا يحترقونهم:

(وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ).

كانوا يرون المؤمنين أشراراً، أو أهل ضلالٍ وانحراف، لأن موازينهم كانت مقلوبة. فمن عارض أصنامهم ومصالحهم صار عندهم شريراً، ومن وافقهم في الطغيان صار عاقلاً محترماً.

إن المجتمع الفاسد لا يكفي بأن يمارس الشر؛ بل يعيد تعريف الكلمات، فيسمي الاستقامة تشدداً، والثبات رجعية، والتوحيد تفرقاً، والنفاق حكمة، والتنازل نضجاً.

وفي الآخرة يبحثون عن أولئك الذين احتقروهم فلا يجدونهم في النار.

(أَتُخَذَ نَاهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ).

أَكُنَّا مَخْطُئِينَ حِينَ جَعَلْنَاهُمْ مَوْضِعَ سَخِرِيَّةٍ؟ أم هم هنا ولكن أبصارنا لا تراهم؟

لقد زَاغَتْ أبصارهم عن قيمتهم في الدنيا، فظنوا أن المشكلة في البصر الآن. لم يدركوا أن المؤمنين في مقامٍ آخر، وراء أبوابٍ مفتحة، يتكئون في جنات عدن.

ما أشد انقلاب الموازين! قومٌ كانوا يملؤون المجالس ضحكاً على أهل الإيمان، ثم يملؤون النار حيرةً في البحث عنهم. والذي كان مادة سخريتهم صار غيابه دليلاً على نجاته.

ثم يضع القرآن خاتم الحقيقة:
(إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ).

قد تبدو المشاهد كأنها حوارٌ بعيد، لكن الله يؤكد: إن ذلك لحق. وكما كان أهل الكفر في الدنيا في (شِقَاقٍ) مع الوحي، صاروا في الآخرة في خصامٍ بعضهم مع بعض. الباطل لا يصنع وحدةً حقيقية؛ يوحد أصحابه مؤقتاً ضد الحق، فإذا غاب الخصم المشترك أكل بعضهم بعضاً. أما الحق فيجمع القلوب حول الله، ولذلك يدخل أهل الجنة وقد نزع ما في صدورهم من غل.

وهكذا تكشف الآيات أن النار ليست لهيباً يحيط بالأجساد فقط؛ إنها أيضاً انكشافٌ نهائي للروابط الكاذبة، وندامةٌ متبادلة، وخصومةٌ لا تصل إلى صلح. فحين يخرج الله من العلاقة، يبقى لكل نفسٍ هواها؛ وإذا اجتمعت الأهواء، لم تصنع أخوة، بل أخرجت انفجار الخصومة إلى حين.

النبا العظيم: إلهٌ واحدٌ لا تملك العزة إلا أن تخضع له

(الآيات 65-70)

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾)

بعد مشهد تخاضم أهل النار، يعود الخطاب إلى النبي ﷺ ليعلن حقيقة الرسالة في كلمات حاسمة:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ).

لست مالك خزائن العذاب، ولا القادر على إكراه القلوب، ولا المدعي لنفسى شيئاً من خصائص الربوبية؛ إنما أنا منذر. مهمتي أن أوقفكم قبل أن يتحول الخبر إلى مشاهدة، وأن أدلكم على النار قبل أن تخطوا إليها.

وفي (إنَّمَا) قصرٌ يظهر مقام الرسالة من الأوهام. فالرسول ﷺ عبدٌ مصطفى، يتلقى عن ربه ويبلغ عنه؛ لا يملك أن يبدل الوحي ليرضي المعترضين، ولا أن يدخل الإيمان في قلب أغلقه صاحبه.

ثم لبُّ الإنذار:

(وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ).

هذه هي الحقيقة التي استكثرها المشركون في أول السورة حين قالوا:

(أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا).

والسورة تعود هنا فتجيبهم: نعم؛ ليس ثمَّ إله إلا الله. ليست القضية أن محمداً ﷺ جمع آلهتم في إله واحد من عند نفسه؛ بل أن ما عبدتموه من دونه لم يكن إلهاً قط.

ثم جاء الاسمان:

(الوَاحِدُ الْقَهَّارُ).

هو الواحد؛ فلا شريك له في ذاته، ولا في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته. وحدانيته ليست عدداً داخل سلسلة؛ بل تفردٌ مطلق يليق بجلاله، ليس كمثل شيء.

وهو القهار؛ كل شيءٍ تحت سلطانه، وكل قوةٍ مقهورةٌ بأمره. الملوك الذين ذكروا في السورة، والأحزاب الذين تكبروا، والريح والجن والجبال والطير، والأجساد في الصحة والمرض، كلها تحت قهره.

واجتماع الاسمين يهدم أصل الشرك: فإن كان واحداً فلا شريك، وإن كان قهاراً فلا نَدَّ يمانعه ولا قوة تخرج عن سلطانه.

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا).

ذكر في أول السورة اعتراضهم على نزول الوحي، فقال: (أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا). وهنا يعلن صاحب الملك الحقيقي: هو رب السماوات والأرض وما بينهما. فمن كان ربَّ هذا الوجود كله، أليس له أن يختار من عباده رسولاً؟ ومن خلق العقول، أليس أعلم بما يهديها؟ ومن يملك الأرض والسما، أفتُحاكم مشيئته إلى مقاييس الملائكة؟

ثم قال:

(الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ).

بدأت السورة بقومٍ (في عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)، وهنا تكشف أن العزة الحقيقية لله: (الْعَزِيزُ). عزتهم وهم يدافعون به عن أصنامهم، وعزته كمالٌ لا يُغلب. لكنه مع عزته غفار. ليس قهراً طاغيةً يتلذذ بإذلال الضعفاء؛ تعالى الله عن ذلك، بل هو العزيز الذي يفتح لعباده باب المغفرة. وبصيغة غفار تكرر المغفرة مهما تكررت العودة الصادقة.

ما أرحم اجتماع الاسمين! لو كان عزيزاً بلا مغفرةٍ لهلك المذنبون من الخوف، ولو فهمت المغفرة بعيداً عن العزة لتجراً الغافلون. لكنه عزيزٌ فلا تُنتهك حدوده بلا حساب، وغفارٌ فلا يئأس من بابه أوَّاب.

ثم قال:

(قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ).

اختلف المفسرون في مرجع النبأ: فقيل القرآن، وقيل التوحيد، وقيل البعث وما تضمنه الوحي. وهذه المعاني متداخلة؛ فالقرآن يحمل نبأ التوحيد والقيامة والرسالة، وكلها نبأٌ عظيم.

وَسَمِّيَ نَبَأً لَا حَدِيثًا عَابِرًا؛ لِأَنَّهُ خَبْرٌ ذُو شَأْنٍ وَمَأَلٍ. إِنَّهُ يَعِيدُ تَعْرِيفَ الْإِنْسَانِ وَالْوُجُودِ
وَالْمَصِيرِ، وَيَفْصِلُ بَيْنَ طَرِيقَيْنِ لَا يَلْتَقِيَانِ فِي النِّهَايَةِ.

غَيْرَ أَنَّ الْمَأْسَاةَ:

(أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ).

لَمْ يَقُلْ: أَنْتُمْ بِهِ جَاهِلُونَ؛ لِأَنَّ الْجَاهِلَ قَدْ يَطْلُبُ الْعِلْمَ. أَمَّا الْمَعْرِضُ فَقَدْ جَاءَهُ الْخَبْرُ فَأَدَارَ
وَجْهَهُ. وَالْإِعْرَاضُ فَعَلٌ إِرَادِيٌّ: تَكُونُ الْآيَةُ أَمَامَكَ، لَكِنْكَ تَشْغَلُ نَفْسَكَ عَنْهَا بِمَا هُوَ
أَصْغَرُ؛ وَتَكُونُ الْآخِرَةُ قَادِمَةً إِلَيْكَ، لَكِنْكَ تَنْفِقُ عَمْرَكَ فِي تَرْتِيبِ أَشْيَاءٍ سَتَتَرَكُهَا وَرَاءَكَ.
إِنَّ عِظْمَةَ النَّبَأِ لَا تَنْفَعُ قَلْبًا لَا يَلْتَفِتُ. قَدْ يَكُونُ أَعْظَمُ الْحَقَائِقِ قَرِيبًا مِنَ الْإِنْسَانِ، ثُمَّ يَعِيشُ
وَيَمُوتُ عَلَى هَامِشِهِ.

ثُمَّ يَثْبُتُ النَّبِيُّ ﷺ مَصْدَرُ عَلَيْهِ:

(مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ).

كَيْفَ عَرَفَ مُحَمَّدٌ ﷺ حَدِيثَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَقِصَّةَ خَلْقِ آدَمَ، وَأَمْرَ السُّجُودِ، وَاعْتِرَاضَ
إِبْلِيسَ؟ لَمْ يَشْهَدْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَقْرَأْهُ فِي كِتَابٍ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ؛ وَإِنَّمَا عَلَّمَهُ الْوَحْيُ.
وَالْمَلَأُ الْأَعْلَى هُمُ الْمَلَائِكَةُ فِي الْعَالَمِ الْعُلَوِيِّ. وَالِاخْتِصَامُ الْمَذْكُورُ لَيْسَ خِصَامَ هَوَى وَفُجُورٍ،
وَإِنَّمَا مَرَاجَعَةٌ وَمُحَاوَرَةٌ فِي شَأْنٍ مَا أَوْحَاهُ اللَّهُ، وَسَيَأْتِي بَيَانُهَا فِي قِصَّةِ آدَمَ.
ثُمَّ:

(إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ).

لَا مَصْدَرَ لِهَذَا الْعِلْمِ إِلَّا الْوَحْيُ. وَالنَّبِيُّ ﷺ نَذِيرٌ مُبِينٌ: إِذْأَذَرَهُ وَاضِحٌ، وَطَرِيقَتُهُ فِي الْبَلَاغِ
مُبِينَةٌ، وَحُجَّتُهُ تَكْشِفُ وَلَا تَعْمِي.

وَهُنَا يَلْتَقِي طَرَفَا الْمَقْطَعِ: هُوَ مَنْذَرٌ فِي بَدَايَتِهِ، وَنَذِيرٌ مُبِينٌ فِي نِهَائِهِ. وَبَيْنَهُمَا التَّوْحِيدُ وَالنَّبَأُ
الْعَظِيمُ وَالْوَحْيُ؛ فَكَأَنَّ وَظِيفَتَهُ ﷺ أَنْ يَحْمِلَ هَذَا النَّبَأَ مِنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ قَبْلَ
أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ فِيهِ الْإِنْذَارُ.

آدم: جسدٌ من طينٍ ينتظر نفخة التكريم

(الآيات (71-72)

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

يفتح القرآن ستار المشهد الأول في قصة الإنسان:
(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ).

قال: (رَبُّكَ)؛ ففي القصة تربيةٌ للنبي ﷺ ولأُمته. الرب الذي خلق آدم وكرمه، هو الذي يربي رسوله بالوحي، ويحيي دعوته من كبر المكذبين.
(إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ).

ها هي البداية الأرضية للإنسان: طين. مادةٌ توطأ بالأقدام، لا تملك في ذاتها ما يدعو إلى الزهو. كل كبرياء بشري ينسى نصف قصته؛ ينظر إلى صورته القائمة وينسى مادته الأولى. والطين يجمع الماء والتراب؛ في الإنسان شيءٌ من ثقل الأرض، وشيءٌ من قابلية التشكل. يمكن أن يهبط إلى شهواته حتى يلتصق بالطين، ويمكن أن يستجيب لنداء الروح فيرتفع بالطاعة.

لكن الله لم يقل: إني خالق طيناً، بل:
(بَشَرًا مِّنْ طِينٍ).

فهو مشروع إنسان، وراء المادة تقديرٌ وتسويةٌ ونفخةٌ وتكليف. لا يجوز احتقار الإنسان بالنظر إلى أصله المادي فقط، كما لا يجوز تأليهه بالنظر إلى ما أودع الله فيه من كرامة.

ثم:
(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ).

التسوية إحكام الخلق وإتمامه على الهيئة التي أرادها الله. كل عضوٍ في موضعه، وكل وظيفةٍ مقدرة، وجسدٌ مهياً لحمل سر التكليف.

إن الإنسان ليس حادثةً مهملةً في الكون؛ لقد سواه الله بعلمه وحكمته. والتسوية تمنحه كرامةً ومسؤولية: فهذا الجسد ليس ملكاً مطلقاً لك تعبت به كيف تشاء، بل بناءً سواه الخالق وأتمتكَ عليه.

(وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي).

هذه إضافة تشریف؛ فالروح مخلوقةٌ لله، أضافها إلى نفسه تكريماً، كما يقال: بيت الله وناقة الله. وليس المعنى أن في الإنسان جزءاً من ذات الله، تعالى الله عن التجزؤ والحلول، سبحانه ليس كمثله شيء.

بالروح صار الطين إنساناً حياً مستعداً للمعرفة والتكليف. وبين الطين والروح يتشكل سر الوجود البشري: جسدٌ من الأرض، لكن قلبه قادرٌ أن يعرف رب السماء. ومن نسي الطين تكبر، ومن نسي الروح ابتذل نفسه. أما المؤمن فيعرف أصله فيتواضع، ويعرف تكريم الله له فيتعفف عن الدنيا.

ثم صدر الأمر:

(فَقْعُوا لَهُ سَاجِدِينَ).

الفاء تفيد المبادرة، و(قَعُوا) توحى بسرعة الانحناء وكال الامتثال. والسجود لآدم كان بأمر الله تكريماً له، وليس بسجود عبادة لغير الله؛ فالعبادة لا تكون إلا لله، ولكن طاعة الملائكة في السجود لآدم كانت عبادةً لله لأنها تنفيذٌ لأمره. وهنا سرٌ عظيم: لم تكن كرامة آدم في أن الملائكة عبدته، حاشا لله، بل في أن الله أمرهم بتكريمه. فالكرامة كلها مستمدة من أمر الله، لا من استقلال المخلوق بشيء.

سجدة واحدة كشفت معدن الملائكة ومعدن إبليس

(الآيات (73-76)

(فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ).

لم يناقشوا بعد ورود الأمر، ولم يقتربوا صورة أخرى للتركيم، ولم يقولوا: نحن خلقنا من نور وهو من طين. المعرفة الحقيقية بالله أورتهم سرعة الامتثال.

ثم جاء التوكيد:

(كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ).

لفظان يتعانقان لإزالة أي احتمال: لم يتخلف منهم ملك. كان الملاء الأعلى كلمة واحدة من الطاعة، وخر الجميع ساجدين.

في المقابل:

(إِلَّا إِبْلِيسَ).

مخلوق واحد شق صف الساجدين؛ لكن الشذوذ لا يصير حقاً لأنه تميز. وقد يظن المتكبر أنه يثبت شخصيته برفض الأمر، بينما هو لا يثبت إلا انفصاله عن موكب الطاعة. وإبليس ليس من جنس الملائكة، بل هو من الجن كما بين القرآن في موضع آخر، لكنه كان حاضراً معهم فشمله الأمر. (اسْتَكْبَرَ).

لم يكن عاجزاً عن حركة السجود، وإنما منعه ما في القلب. جسده قادرٌ على الانحناء، لكن أنه رفضت. فالاستكبار ليس مجرد إحساسٍ بالعظمة؛ إنه أن ترى نفسك أكبر من أن تطيع الحق.

وتأمل الصلة بين أول السورة وآخرها: بدأت بالذين كفروا (فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)، وانتهت بإبليس الذي (اسْتَكْبَرَ). فكأن كبر المشركين فرعٌ من الشجرة الإبلسية الأولى.

ثم قال:

(وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ).

أي صار بسبب استكباره من الكافرين، أو ظهر ما سبق في علم الله من كفره. إن العبادة الطويلة لا تعصم صاحبها إذا كان في باطنه كبرٌ ينتظر لحظة الاختبار. كانت السجدة لحظة كشف. لم تُنشئ الأمراض من عدم، بل أظهرت ما كان كامناً. وهكذا تفعل التكاليف: قد يأتيك أمر الله في موضع يخالف هواك، فيكشف حقيقة عبوديتك. فالإنسان لا يُعرف تماماً حين يوافق الأمر رغبته، بل حين يقف الأمر في وجهها.

قال الله:

(يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي).

إثبات اليمين لله تعالى على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيه بأيدي المخلوقين، ولا تكييف ولا تمثيل؛ فنثبت ما أثبتته الله لنفسه، مع اليقين بقوله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ). وفي ذكر هذا التشریف تعظيمٌ لشأن آدم، وزيادة في تفریع إبليس: كيف تستكبر عن السجود لمن خصّه الله بهذا التكریم؟
(أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ).

أطلبت الكبر الآن، أم تزعم أنك من قوم شأنهم العلو فلا يشملهم الأمر؟ السؤال يهدم ذرائعه، ويضعه أمام حقيقة موقفه: لا يوجد سبب مشروع؛ إنه الكبر وحده. فقال الجملة التي صارت دستور كل عنصرية واحتقار:
(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ).

بدأ بـ أنا قبل أن يتحدث عن أصله. وحين تتضخم الأنا، ترى أمر الله من خلال ميزان مصلحتها، ولا ترى نفسها من خلال أمر الله.
(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ).

ذكر حقيقة الأصلين، لكنه بنى عليها حكماً باطلاً. وهذه من أخطر صور الضلال: أن تكون المقدمات الجزئية صحيحة، ثم يدخل الهوى في تركيب النتيجة.

من قال له إن النار خيرٌ من الطين بإطلاق؟ النار تحرق وتضطرب وتصعد، والطين يسكن وينبت ويحمل البركة. ولكن القضية أصلاً لم تكن مفاضلة عناصر؛ كانت أمراً إلهياً. ولو كان إبليس عبداً حقاً لعلم أن فضل آدم لا تحدده مادته، بل اختيار الله وتكريمه. لقد قابل إبليس النص بالقياس الفاسد، والأمر بالرأي، والتكريم الإلهي بعنصرية المادة. وهكذا يبدأ الانحراف حين يضع الإنسان تصوره فوق حكم الله، ثم يبحث له عن تعليل يبدو منطقياً.

إن قول (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ) لم يمت بانتهاء المشهد؛ إنه يتكرر كلما احتقر إنسان آخر بسبب عرقه أو نسبه أو لونه أو ماله أو طبقته أو بلده. وكل تفضيل يثمر ظلماً ورفضاً للحق يحمل نفحةً من ذلك الكبر القديم.

من مقام العبادة إلى اللعنة: سقوط المتكبر

(الآيات 77-81)

(قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ ۖ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۚ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَعْثُونَ ۚ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۚ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)
(قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا).

الكبر الذي منعه من النزول إلى السجود أهبطه من مقام القرب. أبى أن يخفض بجسده تكرباً لمن كرمه الله، فانخفضت منزلته إلى الأبد. وهذه سنة روحية: من تواضع لله رفعه، ومن استكبر عن الحق وضعه. داود خراً راعياً فكانت له زلفى. والملائكة سجدوا فثبتوا في الطاعة. وإبليس رفض أن ينحني فصدر الأمر بإخراجه.

في السجود يبدو الجسد في أدنى هيئة، لكن الروح تبلغ أعلى مقام. وفي الكبر يبدو الرأس مرتفعاً، لكن صاحبه يهوي.
(فَإِنَّكَ رَاجِعٌ).

مرجومٌ مطرودٌ مبعد عن الرحمة. كان قريباً من الملاء الأعلى، فأخرجه ما في قلبه. وليس البعد عن الله دائماً مسافة؛ قد يكون مرضاً في القلب يجعل صاحبه أبعد ما يكون وهو في موضع العبادة.

(وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ).

اللعنة هي الطرد والإبعاد من الرحمة. وأضافها الله إلى نفسه لبيان عظمها وثبوتها. لقد طلب إبليس العلو لنفسه، فأخذ بدل العلو لعنةً ممتدةً إلى يوم الحساب. تأمل كيف ظهر يوم الدين هنا، بعدما تكرر في السورة يوم الحساب. ذلك اليوم الذي نسيه أهل الهوى هو الموعد الذي تنتهي إليه مهلة إبليس.

لكن إبليس لم يتب:

(قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَعْثُونَ).

قال: (رَبِّ)، فهو يعرف أن الله ربه، ويعرف البعث، ويعرف أن الله وحده يملك الإمهال. لكن المعرفة وحدها لم تنفعه؛ لأن قلبه لم يخضع. وهذه حقيقة مخيفة: قد يعرف الإنسان العقيدة نظرياً، ويقر بالرب والبعث، ثم يهلك بكبره. النجاة ليست في المعلومة وحدها، بل في أن تتحول المعرفة إلى عبودية. وطلب إبليس الإنظار، لا يستدرك ما فات، ولا ليتوب من عصيانه، بل ليواصل مشروع الإغواء. قد تُمنح للإنسان مهلةٌ فيستخدمها في الرجوع، وقد يستخدمها في تعميق الجريمة؛ فالزمن وعاء، والقلب هو الذي يحدد ما يملؤه به. قال الله:

(فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٠١﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ).

استجاب الله له في أصل الإمهال إلى الأجل الذي حدده سبحانه، لا على الصورة المستقلة التي يفرضها إبليس. فالشيطان، مع تمرده، لا يخرج عن قهر الله؛ لا يعيش لحظةً لم يأذن بها، ولا يملك سلطاناً خارج ما قُدِّر له. وسُمِّي الوقت معلوم؛ معلومٌ عند الله، مضبوطٌ لا يتقدم ولا يتأخر. إبليس لا يملك الأبد، بل مهلةٌ محدودة وإن بدت للإنسان طويلة.

مشروع الإغواء: حين يقسم الشيطان بعزة الله

(الآيات (82-85)

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَا مَلَأَن جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

قال إبليس:

(فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ).

يقسم بعزة الله على أن يعصي الله ويغوي عباده! يعرف العزة الحقيقية وينسبها إلى الله، لكنه لا يتعبد بمقتضاها. وهذه قمة التناقض: علم بلا خشوع، وإقرار بلا طاعة. بدأت السورة بالذين كفروا في عزة موهومة، وهنا يقسم إبليس بعزة الله الحقيقية. كأن السورة تقول: العزة التي يتدثر بها المكذبون ليست لهم؛ حتى إمام استكبارهم يعلم أن العزة كلها لله.

(لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ).

مشروعه شامل؛ يريد أن يقطع على كل إنسان طريقه إلى الله. لا يمل من المحاولة، ويأتي كل نفس من الباب المناسب لها. لا يغوي العالم بالطريقة التي يغوي بها الجاهل، ولا العابد بالطريقة التي يغوي بها الفاسق. قد يدخل على العابد من العجب، وعلى العالم من حب الظهور، وعلى المصلح من الغضب لنفسه وهو يظنه غضباً للحق. ولذلك ليس أخطر الشيطان ما يدعوك إليه من معصية مكشوفة، بل ما يلبسه لك ثوب الفضيلة.

لكنه استثنى:

(إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ).

المخلصون: الذين أخلصهم الله واصطفاهم وحفظهم بتوحيدهم وإخلاصهم. والشيطان يعترف بأن له حداً لا يتجاوزه؛ ليس سلطاناً مطلقاً، ولا قوة تجبر الناس على المعصية. فإذا تحقق العبد بعبوديته لله، لم يعد فراغاً يحتله الشيطان. ولذلك تكرر في السورة وصف الأنبياء: (عَبْدَنَا) و(عِبَادَنَا). العبودية حصن، والإخلاص بابه.

والمخلص لله يرجو أن يجعله الله من المخلصين. يبدأ منه صدق التوجه، ويأتيه من الله الحفظ والتثبيت. وكلما قل نصيب النفس من العمل، ضاق مدخل الشيطان؛ لأنه كثيراً ما يدخل من سؤال: ماذا سيقول الناس عنك؟

ثم جاء القول الإلهي:
(فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ).

تعبيرٌ مهيبٌ يتردد فيه جرس الحق مرتين. كأن الحق قد أحاط بالجملة من أولها وآخرها؛ حق في ذاته، وحق في قوله، وحق في وعده ووعيده.
الله لا يقول إلا الحق، وقوله لا يتخلف. وإبليس يستطيع أن يتوعد ويزين ويكذب، لكنه لا يستطيع أن يغير الحقيقة التي نطق بها الله.
(لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ).

قال: (مِمَّنْ تَبَعَكَ)؛ فالشيطان لا يسوق الإنسان إلى النار مقيداً، بل يدعوه ويزين له، فيتبعه من اختار طريقه. ولهذا يبقى الإنسان مسؤولاً؛ فقد أرسل الله الرسل، وأنزل الكتاب، وأقام الحجج، وكشف عداوة الشيطان.

ومعنى امتلاء جهنم من إبليس وأتباعه ليس أن الله يظلم أحداً؛ تعالى الله عن الظلم، بل إنهم دخلوها باتباع طريق الاستكبار والإغواء بعد البيان.

بدأت السورة بأحزابٍ اتبع بعضها بعضاً في التكذيب، وذكرت تخاصمهم في النار، وها هنا تكشف الرأس الأول للسلسلة: إبليس، ومن تبعه. فالطريق من كلمة (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ) إلى جهنم طريقٌ واحد، وإن تنوعت خطواته.

لا أجر على البلاغ، ولا تكلف في حمل الحق

(الآيات (86-88)

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)

بعد النبأ العظيم، وقصة الإنسان الأولى، وكشف مشروع إبليس، يأتي ختام السورة ليظهر مقام الدعوة من كل مصلحة:

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ).

لا أطلب منكم مالاً، ولا منصباً، ولا مكافأةً على هدايتكم. وهذا من أقوى دلائل صدق الرسول ﷺ، فقد حمل أثقل الرسالات، وصبر على الأذى، ولم يجعل البلاغ سلعةً يدفع الناس ثمنها.

من يطلب الدنيا برسالاته يغيّرها حين تتغير مصالحه؛ أما من كان أجره على الله، فيبقى حراً من ضغط الجمهور والملاأ. يقول الحق لمن رضي ولمن غضب، لأنه لا يعيش من خزائهم. (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ).

أي لست ممن يتصنع ما ليس عنده، أو يتقول على الله، أو يتكلف ادعاء الرسالة. وفي اللفظة راحة الصدق: الحق لا يحتاج إلى زخرفة مصطنعة، وصاحبه لا يحتاج إلى أن يتلبس بشخصية غير شخصيته.

التكلف أن يحمل الإنسان نفسه على هيئة ليست له طلباً لنظر الناس؛ أما النبوة فصفاء وصدق وبلاغ.

وفي الآية أدبٌ للدعاة والكُتّاب: لا تجعل اللغة ستاراً يخفي فراغ المعنى، ولا تتصنع العمق، ولا تقل ما لا تعلم لتحفظ بصورة العالم في أعين الناس. الاعتراف بحدود المعرفة أشرف من تكلف جوابٍ يضل السامع.

ثم:

(إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ).

ليس القرآن مشروعاً شخصياً، ولا خطاباً لقبيلةٍ واحدة، ولا ذكراً للعرب دون سواهم؛ إنه للعالمين. يوقظ في كل إنسان فطرته، ويذكره بربه ومصيره، ويعيده إلى حقيقة العبودية. بدأت السورة:

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ).

وختمت:

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ).

فالذكر قوسٌ يحيط بالسورة كلها. بين الذكزين عرضت السورة نماذج من استجابوا للذكر فصاروا أوابين، ونماذج أعرضوا عنه فصاروا أحراباً في التكذيب، ثم أتباعاً في النار. القرآن ذكر، لكن الانتفاع به يتوقف على موضعه من القلب: يدخل قلب داود فيصنع سبيحة. ويدخل قلب سليمان فيصنع إنابة. ويدخل قلب أيوب فيصنع صبراً. ويأتي المتكبرين فيستقبلونه بعزة وشقاق.

الماء واحد، لكن الأرض تختلف.

ثم جاءت آخر آية:

(وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ).

اللام ونون التوكيد الثقيلة تحملان يقيناً لا يتزلزل: ستعلمون. قد تعرضون الآن، وتجادلون، وتتهمون، وتستعجلون العذاب ساخرين؛ لكن الزمن سيمضي، وسينكشف النبأ. (وَبَعْدَ حِينٍ) تترك الزمن مفتوحاً: قد يعلمون صدقه حين يظهر الله دينه. وقد يعلمونه عند الموت. وقد يعلمونه يوم القيامة. وكل واحدٍ سيلقى لحظته التي يتحول فيها النبأ من شيءٍ يسمعه إلى حقيقةٍ يراها.

ما أرهب أن يعرف الإنسان الحق بعدما تنتهي قدرته على اتباعه! وما أجمل أن يعرفه الآن، في زمن المهلة، فيسجد وينيب!

بدأت السورة بأقوام نادوا حين لم يعد وقت المناس، وختمت بإنذارٍ يمنح السامع فرصة قبل ذلك الحين. فكأنها تقول:

لا تنتظر أن يصبر الغيب مشاهدةً لكي تؤمن، فإن فضيلة الإيمان أن تخني للحق حين يأتيك وحياً، قبل أن يأتيك قضاء.

خاتمة الرحلة

من عِرَّةِ الشَّقَاقِ إِلَى عِرَّةِ السَّجُودِ

انتهت سورة ص، لكن سؤالها لا ينتهي:

أَأَنْتَ مِنَ الَّذِينَ (فِي عِرَّةٍ وَشَقَاقٍ)، أَمْ مِنَ الَّذِينَ إِذَا تَنَبَّهُوا خَرُّوا وَأَنَابُوا؟

لقد عرضت السورة طريقين متقابلين:

طريقٌ يبدأ بالعجب من الوحي، ثم اتهام الرسول، ثم الاعتصام بالموروث، ثم الاستهزاء بالحساب، وينتهي بالتخاضع في النار.

وطريقٌ يبدأ بسماع الذكر، ثم مجاهدة الهوى، ثم الإنابة عند الفتنة، والصبر عند البلاء، والشكر عند التمكين، وينتهي بالزلفى وحسن المآب.

وفي منتصف الطريق يقف الأنبياء معلمين للقلب:

داود عليه السلام يقول لك: قد تكون قوياً، لكن قوتك لا تكتمل حتى تعرف كيف تخضع لله.

وسليمان عليه السلام يقول لك: قد تتسع الدنيا في يدك، فلا تسمح لها أن تضيق بها مساحة الذكر في قلبك.

وأيوب عليه السلام يقول لك: قد يعجز جسدك عن النهوض، ويبقى قلبك قادراً على الوصول إلى الله بنداءٍ واحد.

وإبراهيم وإسماعيل ويعقوب عليهم السلام يقولون لك: لا تجعل الدنيا هي الدار؛ عش فيها بعين ترى الآخرة، ويد تعمل للخير.

والملائكة يقولون لك: النجاة في سرعة الامتثال.

وإبليس يحذرك من أقدم كلمة أهلكت صاحبها:
(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ).

إن محور السورة ليس أن الإنسان يخطئ أو لا يخطئ فحسب؛ بل ماذا يصنع حين تتكشف له نفسه؟

داود رأى الفتنة، فاستغفر وخرّ وأتاب. وسليمان فُتن، فقال: رب اغفر لي. وأيوب مسّه الضر، فنادى ربه وبقى صابراً. أما إبليس فأنكشف كبره، فدافع عنه، وعلّله، وأقسم أن ينشره في ذرية آدم.

الفرق بين الأواب وإبليس ليس أن أحدهما عُرض للامتحان والآخر لم يُعرض؛ بل أن الأواب إذا كُشفت له عثرته عاد، والمتكبر إذا كُشف له خطؤه حوَّله إلى مذهب.

وهذا هو السر الذي تزرعه سورة ص في القلب:

ليست العصمة البشرية في الآلا ترى ضعفك قط، بل السلامة في الآلا يمنعك كبرك من الاعتراف به. وليست القوة أن تظل قائماً دائماً، بل أن تعرف متى تخرُّ ساجداً. وليس الملك أن تجري الريح بأمرك، بل أن يبقى هواك محكوماً بأمر الله. وليس الصبر ألا تشعر بالألم، بل أن يظل نداء (رَبِّي) حياً في فك حين تنداعى الأسباب.

إن سورة ص تبدأ بصوت حرف واحد، ثم يمتد صداها في التاريخ والكون والآخرة؛ حتى تقف بك عند آخر الحقيقة:

الله هو الواحد القهار، وهو العزيز الغفار، وهو الوهاب الذي لا تنفذ خزائنه.

فلا تنازع اختياره، ولا تياس من مغفرته، ولا تنسب هبته إلى نفسك، ولا تجعل بينك وبين الإنابة مسافة.

وحين تقرأ:

(فَاسْتَغْفِرْ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ)

فلا تقرأها بوصفها حركة وقعت لداود في زمن بعيد، بل اجعلها هيئة لقلبك كلما فاجأه الهوى:

أن يستغفر قبل أن يبرر، وأن يخترق قبل أن يستكبر، وأن يعود قبل أن يأتي الحين الذي لا مناص فيه.

فهنيئاً لقلب عاش في الدنيا أواباً؛ لأن كل طرق الإنابة، مهما كثرت عثراتها، تنتهي عند باب واحد:

(وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَّآبٍ).